

جمر كانون
قصص
أبو بكر العيادي
سلسلة آفاق عربية
155
الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة آفاق عربية

يتناول هذا العمل أحداثًا عن تونس بعد الثورة، في محاولة للمؤلف للخوض في الواقع التونسي والربط بينه وبين الماضي، ويحاول أن يطرح وجهة نظره من خلال تفسير الأحداث التي تقع تحت مسمى الحرية، وهي تتوافق مع الواقع المصري الآن.





السعر: ثلاثة جنيهات

جمـــر كانـــون

(قصص)

أبو بكر العيادى





سلسلة
آفاق عربية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• جمر كانون
• أبو بكر العيادي
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2013م
13,5 x 19,5 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية: أشرف عبد الفتاح
• رقم الإيداع: ٨٠٠٩/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-718-319-2
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947891 (داخلي: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

155

سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي وتوجه المؤلف في المقام الأول.

جمـــركانــــون

جَمر كانون

إلى الذين أشعلوا فتيل ثورة الحرِّيَّة والكرامة فى الوطن العربيِّ

إذا الشّعب يوما أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيبَ القدر
ولا بــدّ للظُّلم أن ينجلي ولا بــدّ للقيد أن ينكسر

أبو القاسم الشّابي

هذى بـلادٌ سطّرت تاريخَـها بيدٍ مُضرّجَة بدفْـقِ نَجيـعِها
خُلِقَتْ جَموحًا لا تَذِلُّ لسائسٍ أعيا جميعَ الخَلْقِ أمرُ خضوعِها

محمّد الغزّي

جمر كانون

جاء في اللّسان قول الجوهري: الكانون هو الموْقد، وهو المُصْطَلى. وأبي، الذى لا يفكُّ الحرف ولا يُوقّع إلاّ بصما بالإبهام، لم يكن يحتاج إلى معاجم السّابقين واللاّحقين ليعرف ما الكانون، وهو الذى جاءنا به من عند محبوبة الملاّسة أشهر من يصنع الكوانين فى الجهة، وما نفعه فى بيت لم يسمع أهله بالغاز والكهرباء. كان عريض القاعدة، فسيح الجوف، لا تجد أمّى صعوبة فى وضع القدر على أثافيه المتينة، خلافا للكانون السّابق الذى طالما تذمّرت من ضحالته وقصر أثافيه وسرعة تصدّعه. ونفع الكانون فى بيتنا يتعدّى طهى الأكل، على أهمّيته، ليكتسى إهاب جامع الشّمل حين نتحلّق حوله بعد العشاء، نلتمس الدّفء ونسمع من أبى حكايات وطرفا يؤثّث بها السّهرة، إلى أن ترتخى الجفون ويسلمنا النّوم إلى أحلام أو كوابيس.

على ضوء لمبة جاز يتلاعب بفتيلها هبو ريح غربيّة قارسة، ينفذ عبر

الشّقوق والكوّة الوحيدة المغلّقة بلوح خشبيّ عتّقته أغبرة الوقت وأمطاره ورياحه، كان أبي يحدّثنا عن نعم الكانون في اللّيالي الجاهمة، حين يشتدّ الصّقيع ويغمر الدّوّارَ ظلام سميك يمكن قطعه بالموسى، ويغمّ البيوت الوضيعة ليل كثيف جامد لا تنبح فيه الكلاب. كان يميل على البرّاد يعدّل وضعه ويعلّق في انتشاء البسطاء: "برّاد تاي مْعَمَّر خير من تركة مُعمَّر!"، ثم يشير إلى الكانون يحذّرنا من عواقبه الوخيمة، إذا ما استنمنا لدفئه طويلا ونسينا الحذر، فـ"الزّنزانة"[1] حينئذ تكون لنا بالمرصاد تخنق بلا رحمة، فإذا الدّوّار كلّه عَبرة بعد ابتسام ونَوح بعد شدو وأتراح بعد أفراح.

وليلة، والبدر غارب، والظّلمة حالكة، والرّيح تصفر عبر الفجوات مثل نواح نادبات يعدّدن مناقب فقيد، والمطر ينهال على سقف الطّين المخلوط بالقشّ وجذوع الأشجار في زخّات متباعدة كأنّها رفرفة سرب غرانيق، خطر له أن يسألَنا والضّوء الشّحيح يترامى على وجهه المربّع ذي القسمات الغليظة: "أيّهما أفضل؟ الحرّ أم القرّ؟" ردّت أختي مباركة على الفور: "الحرّ طبعا!" فهزّ رأسه المعتمر بشاشيّة حال لونها وقال: "أنت على رأي مسيو كولاس صاحب الضّيعة. كان كلّما اشتدّ

١- تسمية العوام لغاز ثاني أكسيد الكربون الذي ينتج عن احتراق الفحم في غرفة مغلقة ينام بها بشر.

البرد فى هذا الفضاء المشرَع، تذكّر جيوش نابليون وهتلر وادّعى أنّ القرّ هو الذى شتّت ريحها ومزّق جمعها شرّ ممزّق."

ويصمت برهة يرشف خلالها قليلا من شايه الأحمر الثّخين، يمطّ شفتيه الغليظتين، يتمطّق بانتشاء محدثا صوتا أشبه بالفرقعة، ثمّ يتابع: "أنا أفضّل القرّ، على رأى جدّكم بوذراعين. كان رحمة الله عليه يقول: الحرّ هنا، فى هذه الأرض المنبسطة المطوّقة بجبال تجعلها مثل قاع جابية ناشفة، قيظ مستعر يشوى اللّحم ويذيب الشّحم ويصهر العظام فتصيب الرؤوس منه حمّى تمنع أهلها من التّفكير، وعندما يهبط اللّيل، ترتخى الأجساد وتطارد متع اللّهو فى الحوانيت حيث الخمر ولعب الورق والحشيش.

ويرشف أبى بتلذّذ رشفة أخرى ويواصل: "فصل الحرّ عندنا، فى ما يقول جدّكم، يصادف موسم الحصاد حيث العقول والأجساد منذورة لأعمال آخذ بعضها برقاب بعض، ثمّ منصرفة إلى إنفاق عائدات المحصول إن قليلا أو كثيرا فى خمّارات المدينة وأماكن أخرى لا يليق بى ذكرها. ومن ثَمّ فالخمول شيمتها، لا تنتبه لمظلمة ولا تتحرّك لضيم. أمّا القرّ، فهو يرغم المرء على الانكفاء على ذاته يحاسبها، ويولّد لديه الخوف من غد قد لا يأتى بالمؤمّل، فالعيش عندنا كما تعلمون يقوم على الرّعى وزراعة الحبوب، فإن طاب الزّرع طبنا، وإن عجف متنا

جوعا وفاقة. هنا تكون العقول متنبّهة والأجساد متحفّزة والنّفوس متوثّبة لا تسكت عن الحقّ، ولو كان فيه قطع الرّقاب."

ثمّ يطفق فى سرد حكاية جدّى مع القايد[1] عبد السّميع المهرى ويقول: "كان عبد السّميع هذا شيخ تراب من عهد البايات، ولمّا احتلّ الفرنسيس أرضنا، تقرّب إليهم بالعطايا والهدايا، وقيل إنّه زوّج ابنته واحدا من أبناء المعمّرين. كان له بغلة يستعملها فى غدوّه ورواحه، فلمّا عيّنوه قايدا، طمع فى فرس أبي، فجاء يستجديه أن يعيرها إيّاه مطيّة إلى الحاضرة لقضاء بعض شؤونه، ووعده فى المقابل بأن يرفع عنه المكس والجباية. ولمّا رجع من رحلته، استبقى الفرس عنده ونكث الوعد، وهدّد أبى بالويل والثّبور إن عاد يطرق بابه. كان الشّتاء قد حلّ، والبرد قد بدأ يدفع النّاس إلى الانكفاء داخل بيوتهم يجترّون فى زواياها البائسة مغامراتهم أو خيباتهم أوان الصّيف، ويراجعون ما لهم وما عليهم، فلا يسفر الصّبح إلاّ وقد اتّخذوا هذه الوجهة أو تلك، فرادى أو مجتمعين. وكان أبى لا يفتأ يحدّث النّاس بأمر عبد السّميع معه لعلّهم يردّونه عن ظلمه، حتّى أثار بذلك حفيظة القايد. وفى فجر يوم يجمّد برده النبت والجداول، أقبل على والدى صحبة ثلاثة

١- تنطق بالقاف الصّعيديّة (أو الجيم القاهريّة المعطّشة)، وتعنى رتبة إداريّة، أرفع من رتبة العمدة، فى عهد البايات زمن الاحتلال الفرنسيّ.

صبايحيّة[1] يضربون الأرض بأقدامهم، وطالبه بضريبة تعمّد تضخيمها لإرغام أنفه. رآه أبى ممتطيا صهوة فرسه فتقبّض لذلك المنظر قلبه. حزّ فى نفسه أن يرى "البرقاء"، فرسه الدّهماء ذات الغرّةِ المميّزة التى تزين طالعها والجسدِ ذى الكاهل العالى الدّقيق والقوائم الرّفيعة والذّيل المنطلق مثل شعلة يداعب ذؤابتها النّسيم، تنظر إليه بعينيها الواسعتين كأنّها تلومه على تركه رجلا مكابرا يضمر له الشّرّ يركبها عنوة، فودّ لو يثب عليه لاستردادها لولا خوفه من بطش الصّبايحيّة، وهم غلاظ لا تعرف الشّفقة طريقا إلى قلوبهم المتحجّرة، والنّاس فى الدّواوير المجاورة يتحدّثون عن قسوتهم، ويروون كيف شدّوا أحد الممتنعين عن دفع الضّريبة إلى جذع شجرة، فجلدوه أمام امرأته وأولاده ومزّقوا جلده. كظم أبى غيظه وقال: أنت تعرف أنّ هذا فوق طاقتي. فقال له القايد: القانون لا يعرف ولا يهمّه أن يعرف. قال أبي: ولكنّك تجحف فى تطبيقه عليّ. عبس عبد السّميع عبسة عميقة، وزمّ فمه المكمّش الذى تلتمّ حوله لحية مشتهبة، فبصق جانبا بقايا "نفّة"[2] كانت تحت لسانه، ثمّ قال: لا فائدة من اللّتّ والعجن. أمامك أسبوع كى تدفع ما عليك وإلاّ فقل على شياهك السّلام."

• • •

١- م. صبايحي، وهو عسكريّ تحت إمرة القايد.
٢- مسحوق التبغ يشم أو يوضع تحت طرف اللّسان.

وجاء أيضا قولهم: للكانون وجهان، أوّل وآخر، وينعت بهما أهل الرّوم شهرين في قلب الشّتاء، فقالوا كانون الأوّل، وكانون الآخر. أمّا جدّي، في ما يروى أبي أثناء أسمارنا الخاوية إلاّ من أحاديث السّلف، فكان يقسّم تلك الفترة من العام إلى ليال سود تُعقَد فيها المجالس وتنسَج الخطط وتدبَّر المكائد وتغتلي الصّدور بالعزم على رفع الغبن ومقارعة الأعداء؛ وليال بيض تمتلئ برجع ما قيل وما جرى لاستخلاص عبرة، فإذا النّفوس مبتهجة بنصر، أو غاضبة فائرة تتحفّز لصدام ولو كانت الكفّة مائلة للخصم.

كذلك كانت حاله طوال أسبوع من سهر مضن يهزّه الغيظ ولا يقعده، حتّى همس لي ذات ليلة وكان قد استبقاني حذوه بعد أن نام الجميع: "قد أغيب بعض الوقت." ثمّ نظر إليّ نظرة عميقة كأنّه هاء لأمر جلل وأردف: "عينك على أمّك وإخوتك. أنت رجل البيت في غيابي." ولم يضف إلى ذلك شيئا يذكر. وما كاد النّهار يطلع حتّى أقبل عبد السّميع وأعوانه لاستخلاص الضّريبة، وكنّا قد تجمّعنا حول أبي نساعده، وهو يعزق الأرض ويغرس بعض الشّتل في أحواض خضر أمام المراح تحت سماء مغمومة، تتلاحق في فضائها غيوم داكنة مدفوعة بريح تخز العظام ببرد لاسع، ريح تعبث بالأوراق اليابسة وتثير بين الحين والآخر ما كنّا نسمّيه "سحّيرة"، تلك الزّوبعة الخفيفة التي

ترفع الحصى المتناثر وأتربة الحقول فى شكل دردور يترنّح مثل سكّير خذلته قدماه، فيما كانت أمّى أمام البيت منكبّة على فرن الطّين تعدّ جرادق الخبز الشّعير، وتختلس نظرات خاطفة باتّجاه القادمين فى وجل تكاد لا تخفيه، لما تعلمه من بغيهم واستهتارهم.

توقّف أبى عن العزق فتبعناه، ومددنا البصر نحو الموكب الصّغير وفى القلوب خوف ورهبة. بادره القايد بالسّؤال وهو يقف وقفته السّابقة على ظهر الفرس متوسّطا أعوانه: "هل أعددت ما بذمّتك؟" اتّكأ أبى بمرفقه على يد المسحاة ورفع رأسه فى تحدّ وقال: "فرسى ولك ما تريد!" ارتسمت البغتة على وجه عبد السّميع، وقهقه فى استخفاف ورأسه الصّغير المعمّم يميل إلى الوراء، ثمّ قال بصوته الخشن الذى لا يناسب نحول جسده: "أهو شرط؟" ردّ والدى دون أن يتزحزح قيد شبر: "كلامى واضح." صاح القايد وقد اربدّت سحنته بالغضب: "سنؤدّبك كى تتعلّم تلبية الأوامر دون نقاش!" وأشار بإصبع راجفة آمرة إلى أعوانه ليمسكوا أبى ويجلدوه. وفجأة حدث ما لم يكن فى حسبان أحد. صاح أبي: "البرقاء!" فانتفضت الفرس كالتماع البرق وجمحت بقوّة وحمحمت وهى ترفع قائمتيها الأماميّتين فى هياج أفقد راكبها توازنه، كأنّ يدا انتزعته من السّرج، فهوى بكلّ ثقله على الأرض، وانفرش طرفا برنسه على جانبيه فيما مالت العمامة حتّى

لامست التّراب اللّزج، فبدا من تحتها فوداه الأشيبان ورأسه الأجرد. وقبل أن يصحو الصّبايحيّة من ذهولهم، أمسك أبي اللّجام، ووثب على ظهر راحلته، ومضى إلى أعوان القايد يطرّق ظهورهم بيد المسحاة ويدفع نحوهم الفرس ترفسهم بحوافرها، فإذا هم في لمح البصر مثل زرع داسته حوافر البقر.

لم ندر ساعتها هل اهتزّت قلوبنا لدويّ الرّعد أم لمرأى أبي لائذا بالفرار، ملتحما بفرسه التحاما جعلهما أشبه بكتلة هاربة موغلة في البرد والخضرة والغمام، أم لوابل المطر الذي انهمر علينا بغزارة تحت ومض البرق وهزيم الرّعد، أم لمخاوف أخرى بدأنا نستشعرها والرجال الثلاثة يزيلون الوحل ويمسحون أثر المياه الملوّثة عن وجوههم، ويغالبون أنفسهم للنّهوض وأفواههم لا تكفّ عن قذف الهارب بأقذع الشتائم. ولكنّ الثّابت أنّ الرّعب استبدّ بقلوبنا حينما جثا أحدهم على ركبة ونصف ليسعف الرّجل الطّريح، وقد لاح مسجّى تحت زخّات المطر كمن فارق الحياة: جامدا ليس للبلل من أثر عليه. سمعناه يناديه بصفته بصوت منخفض مجلّل ببخار أنفاسه: "سيدي القايد! سيدي القايد!" ورأيناه ينحني عليه حتّى يكاد يلامس وجهه، ثمّ يربّت بكفّه على خدّه قبل أن يرفع بصره نحو زميليه ويهزّ رأسه هزّة يائس. أدركنا

ساعتها، وأنظارهم تنصبّ علينا في حنق تجرّدنا وتعرّينا، أنّنا مقبلون على أيّام عصيبة لن يهدأ لها وجيب.

• • •

وجاء في اللّسان أيضا قول أبي منصور: وهذان الشّهران عند العرب هما الْهَرّاران يهرّان هريرا كهرير الرّحى، وما أَهَرَّ ذا ناب (أو عزيزا) إلاّ شرّ، والْهَبّاران يهبران هبرا، ينتسفان من كلّ هَبرَةٍ هَبْراء مُهَوْبرَة قطعة. أمّا والدي، رحمة الله عليه، فكان يسمّى الأوّل توجمبر الأصمّ، فيه يغدو البرد أسنّة مدبّبة تخترق الجسد وتنفذ إلى العظام تخزها بحدّة لا يُعرف لها مثيل، وتنداح الجمّادة على الجنائن والحقول تغمرها بطبقة من الجليد تخنق النّبت في المهد؛ ويسمّى الثّاني جنّاير، وفيه يكون الجوّ مكفهرّا على الدّوام، والرّيح متناوحة باستمرار، والأمطار أشبه بخيوط مشدودة إلى السّماء، والمسارب والثّنايا والمداخل معطّنة بالبرك والأوحال بشكل يتعذّر معه الحصول على القوت إلاّ لمن ادّخر بعض زاد، والبيوت عرضة لفيضانات تجرف بلا هوادة، ويغدو الجوع حينئذ دافعا إلى الخروج عن القانون، وحتّى عن أخلاق الملّة، فإذا شعاف الجبال ومغاور الأدغال ملاوذ استجار بها أبي وأمّه وإخوته هربا من تتبّعات الصّبايحيّة، بعد أن صار رأس جدّي مطلوبا حيّا أو ميّتا، وباتوا هم قبلة لتحرّش القايد الجديد وجوره.

لم يمت عبد السّميع، بل شلّ نصفه الأسفل وبات حبيس البيت لا يغادره، فجيء بخلف أشدّ سطوة يقال له عمارة الصقلّي، كان همّه الأوّل إلقاء القبض على جدّى بأيّ ثمن، جدّى الذى هجّ إلى عقلة شارن في ما يروى المسافرون، وأقام بها سنين طويلة دون أن يعدل القايد الجديد عن طلب رأسه. وكان الإخفاق يوغر صدره بحنق شديد، فيمعن فى التّنكيل بزوجة الهارب وأبنائه، ويشدّد عليهم الملاحقة حتّى بعد أن لاذوا بالأحراش. وبرجوع الزّعيم المنفيّ، أرخى عمارة الصّقلّى قبضته قليلا فعاد الفارّون إلى ديارهم، ثمّ تبعهم جدّى وكان يحسب أنّه صار فى مأمن، ولكنّ القايد كان قد أضمر له نهاية غير التى توقّعها الأهالي، وهم يهزجون بوشك اندحار الغاصب المحتلّ، فقد أرسل من يغتاله فى مساء يوم غائم حين كان عائدا من جنانه.

عندما سمع أبى طلقة عيار ناريّ على مسافة قريبة، أحسّ طعنة نجلاء تصيبه فى القلب، وأدرك فى الحال أنّ أباه هو المستهدف. جرى إليه فوجده صريعا ينزف رأسه دما داكنا يسيل على خدّه ورقبته، ممدّدا تحت شجرة لوز قرب طابية التّين الشّوكيّ وذراعاه منفرجتان، وعيناه إلى السّماء مصوّبتان نحو نقطة لا يعرفها سواه. كان نوجمبر قد انقضى وحلّ بعده ينايِر، ولم يكن أبى بحاجة إلى من يلهب صدره فى شهرى الجمر والمصطلى، ولا إلى من يدلّه إلى القاتل.

وفى ليلة غطشاء لا يرى فيها المرء أبعد من مرمى بخار أنفاسه، تسلّل إلى دار الصّقلّي. دار منيفة تضاهى فى أبّهتها ضياع المعمّرين، وإن كانت تتميّز عنها بطرازها العربيّ التّقليديّ، تلوح بجدرانها المطليّة بالجير فى صدر جنان مسيّج بطوابى التّين الشّوكيّ تحيط بها من كلّ جانب، ويحضن في عمقه وراء الدّار إسطبل الخيل وزريبة المواشي. يذكر من دخل الدّار أنّها تشمل حوشا واسعا ذا أرضيّة مبلّطة، تتوسّطه خسّة مستديرة من الرّخام الورديّ، وتحيط به من الجوانب الأربعة غرف فسيحة قد رصّعت جدرانها بالخزف الزّهريّ، تحتلّ من بينها غرفة استقبال الضّيوف موقع الصّدارة. يدخل الزّائر الدّار عبر ممشى طويل محصّب تزينه من الجانبين شجيرات دفلى، يقوده إلى باب من خشب الصّنوبر الأخضر قد رصّع بخُمسة وأهلّة ومسامير سود غليظة. نفذ أبى إلى الجنان من الخلف، ومضى خفيفا حتّى صادف كلبا شرسا من فصيلة "البيرجي" الألماني وقد هبّ يعترض سبيله بنباح قويّ، فرمى إليه بقطعة لحم مسمومة أخمدت حسّه، ثمّ تسلّق شجرة توت عبر من أحد أغصانها المائلة إلى السّقف، وتحدّر إلى وسط الدّار وهو يرهف السّمع لأيّ دبيب. تناهت إليه ضحكات نسويّة قادمة من خدر إحدى زوجات القايد. أحدّ بصره فلاح له باب موارب تنفذ منه، مع الضّوء الخافت، رائحة "الحشيش. اتّجه نحوه بخطى خفيفة حذرة ودفعه برفق

ودخل، فغمره الدّفء وأخلاط من روائح المسك والنبيذ والحشيش. كان عمارة الصّقلّى فى قميص وبدعيّة وسروال بوليّة جالسا على زرابيّ وجلود خرفان فرشت على الأرض مرتفقا نمارق مزركشة. لم يبد على وجهه الأبيض المدوّر ذى الشّارب المفتول اندهاش ولا انذعار، بل واصل امتصاص غليونه الرّفيع قبل أن ينفض رماده فى صينيّة أمامه، بها قارورة خمر وكأس مملوءة وفضلة من طعام. تراجع قليلا إلى الوراء يسند ظهره ويمدّ رجليه، ثمّ نظر بعينيه الجاحظتين إلى أبى ونطق بسؤال يحمل جوابه: "جئت تثأر لأبيك؟" كزّ أبى أسنانه من الحنق ولم ينطق بلفظ، فعاد القايد إلى الكلام: "تأخّرت." سحب عرّاقيته ليهرش شعره الغزير الموخوط بالشّيب وأضاف: "توقّعت مجيئك قبل السّاعة." وسكت برهة قبل أن يضيف: "هيّا! ماذا تنتظر؟ خلّصنى من..."، "عذاب الضّمير؟" أكمل والدى بدلا منه، فإذا هو يثير اندهاش غريمه. انتابت عمارة نوبة ضحك غريبة، ضحك جوفيّ يهتزّ له كامل بدنه ولا تفترّ له شفتاه، ختمه بقوله: "العذاب، صحيح؛ ولكن من رؤية العربان يحكمون هذه البلاد، وقد بات مؤكّدا أنّ فرنسا سترحل بعد أن يئست من تثقيفكم وتمدينكم." ثمّ اربدّ وجهه ولمعت عيناه لمعة ازدراء مقيتة فقام قومة عنيفة وقال: "والله، للموتُ أهون من العيش تحت إمرة أجلاف من طينتك!" ونظر بتركيز فى عينى أبي،

ثمّ أمال رأسه وبصق. كان ذلك آخر عهده بالدّنيا، إذ عاجله أبى بطعنة مزّقت أحشاءه، خرّ إثرها على الصّينيّة فبعثر ما فيها، وظلّ يتشحّط فى دمائه حتّى لفظ أنفاسه.

• • •

وقالوا كذلك إنّهما شهرا قُماح وقماح. وذكر الأزهرى أنّهما أشدّ الشّتاء بردا، سُمّيا بذلك لكراهة كلّ ذى كبد شُرْبَ الماء فيهما، ولأنّ الإبل لا تشرب فيهما إلاّ تعذيراً، وإذا وردتْ آذاها برد الماء فقامَحَتْ، أى رفعت رأسها وغضّت بصرها وعافت الشّرب، والقامحُ هو الذى اشتدّ عطشه حتى فتر لذلك فتوراً شديداً. وأبى الذى لا يعرف أبا منصور ولا الأزهرى ولا الجوهرى ولا مالك بن خالد الهُذَلِيّ كان يعتبر أنّ القامح هو من لم يعد يجد فى البيت قوت يومه، ولا أحلام لياليه، فنخرج إلى النّاس رافعا صوته، طالبا حقّه فى العيش الكريم، مذكّرا الحكّام الجدد بوعود أخلفوها بألف عذر، واستعاضوا عنها فى برّ المعوزين بالنّسب والولاء، فإذا هو يرد بدل الماء كدرا وطينا، ويوصم عند قول الحقّ بالخيانة، وقد يضطهد ويلقى فى غيابات السّجون، بعد أن ناب عن القيّاد والصّبايحيّة قوم أفسد طبعا وأنذل طويّة وأشدّ مكرا فى بسط القانون. وإذا الحال هى نفسها زمن المحتلّ أو تزيد وإذا الكانون بوجهيه يغتلى من جديد، فيتناثر منه شرر ما أن يُطفأ حتّى ينقدح بلهب مستجدّ.

وكبرنا فإذا الأحلام فى شرع الحاكم أوهام، وإذا الكانون عنده دليل على الأساس والثّبات والاستقرار، فيما هو فى نظرنا، نحن الشّباب المعطّل، بوتقة الغليان، وموئل الجمر الموقد، المنذر بسعير يقوّض الأركان.

أذكر أنّ أبي، الذى قتل غدرا فى تارة من تارات كانون، كان ينبّهنا إلى ضرورة تخيّر الوقود، فليس الفحم كلّه قابلا للاشتعال على نحو تتولّد عنه فاكهة الشّتاء، إذ فيه "المرعوبة"، تلك القطع النديّة الصّلبة التى تحتلّ من الكانون موقع الصّدارة أحيانا، ولا تخلّف سوى دخان يعشى العيون.

عندما اندلعت الحرائق فى كانون الأوّل وعمّت البلاد فى كانون الأخر، كانت تلك الهواجس المتوارثة من عهد جدّى قد حلّت محلّ العقيدة لا نتزحزح عنها قيد شبر. وما زلنا حتّى السّاعة نحذر الدّخان الذى يصدر عن "المرعوبة"، وما أكثرها هذه الأيّام.

باريس فى ١٤ مارس ٢٠١١

الغضب والعنف

كان جميلا كنوّار اللّوز، حلو الحديث كدقلة النّور، واسع الصّدر كالسّهل، صافيًا كعين ماء جارية، سخيًّا كحقل عنب.

دون الثّلاثين بقليل كنصف أهالى هذا البلد، ومثلهم أيضًا عاطل عن العمل، عاطل قبل أن يدخل معترك الحياة.

الاسم رافع، رافع الهنشيريّ، من بلاد القمح والشّعير التى ما عادت تطعم أهلها غير الجوع، لاذوا بالمدينة طمعا فى لقمة ونصيب من الكرامة، فلم تمنحهم غير البطالة والعيش المزرى بالحوارى الخلفيّة.

يكره العنف ولا ينساق للغضب مهما كانت الأسباب.

يعشق أشعار درويش وأغانى الشّيخ إمام ورسوم ناجى العليّ.

يعشق الحياة، كان... قبل أن تغتاله يد الغدر فى يوم مشهود.

• • •

فى ذلك اليوم، اختنق "وسط البلاد" بالأجساد المتراصّة، ولاح شارع بورقيبة، وهو محاصر بمدرّعات تقف فى المواقع الحسّاسة، أضيق من

ملعب رادس يوم نهائيّ الكأس بين الإفريقي والتّرجّي. لا مكان إلاّ للصّراخ والتّنديد ورفع رايات الوطن ولافتات تلخّص شعاراتها المطلب الرّئيس: "الخلاص من عصابة فاسدة." سواد يمتدّ على طول الشّارع. خلق كالجراد المرصوص فى مكان وجد فيه ما يقتات. على الجدران وواجهات المحلاّت حولنا رسوم وكتابات حمراء فى لون الدّم:

حرّية، كرامة، وطنيّة!

خبز وماء، وبن على لا!

عن بعد بدت فتاة محمولة على الأعناق ترفع عقيرتها بالغناء والشّباب من حولها يهلّلون. على اليمين شابّ متشبّث بعمود كهربائى يزعق بصوت متهدّج شعارات يبتدعها خياله أو كان أعدّها فى اللّيل وجاء يستحضرها من ذاكرته، ورفاقه إناثا وذكورا يردّدون خلفه مثل جوقة. ومن اليسار تعالى صوت غاضب لرجل ريفيّ الملامح تلمع فى جبينه الأسمر المقّبب حبّات عرق، يمدّ ذراعه فى تحدّ صوب المبنى الرّماديّ الذى استقرّ فى ذاكرة الجميع رمزا للقمع والاستبداد، ووعيناه تحدّقان إلى رجال أمن بأزياء قتال، يقفون خلف أسلاك شائكة ومتاريس من البلاستيك، يصرخ فيردّد الجمع من خلفه:

وزارة الدّاخليّة، وزارة إرهابيّة!

وزارة الدّاخليّة، وزارة إرهابيّة!

• • •

كيف استطعنا أن ننزل إلى الشّارع في بلد يرابط في كلّ منعرج من منعرجاته بوليس جوّعه النّظام وغسل مخّه وصوّر له المجتمع كلّه حفنة مجرمين لا ينفع معهم إلاّ العنف؟ نظام علّم أعوانه ألاّ شيء يعدل السّكون. السّكون بالنّسبة إليه راحة، والرّكود نعيم، والاستقرار جنّة، فإذا ما رافق ذلك دعاء خاشع صامت لصاحب الفضل والنّعمة فذلك مبعث نشوة تعلو بصاحبها إلى ملكوت السّماء. علّمهم أيضا أن ليس ثمّة ما يؤرّق أكثر من الحركة. كل حركة مدعاة إلى الرّيبة ولو كانت حفيف أوراق شجر، أو خفق جناحي طير أو هسيس المطر.

ونحن نتابع ما يجرى على التويتر والفيسبوك، قال لنا رافع الهنشيري، صديقنا ورأس زمرتنا: "الحركة ولود والسّكون عاقر، كذلك علّمنا أجدادنا، كذلك تعلّمنا من كتب الأوّلين، ولكنّ الحركة في شرع هذا النّظام الجائر تمرّد، لا سيّما إذا ندّت بغير مرسوم سلطانيّ، ونتأت في الطّريق العامّ تنبئ باندلاع فضيحة."

يتطلّع إلى رسائل الأصدقاء الافتراضيّين على الشّبكة وهم يتنادون لليوم الموعود ويضيف: "أن تحيد عن الصّفّ مقدار شبر، لا بل قيد أنملة، هو في نظر السّلطة مروق وعصيان وتمرّد ومحاولة لقلب النّظام. وما دامت تملك القوّة وتملك حقّ استعمالها فلن تتردّد لحظة في قصم ظهورنا."

قال أحدنا: "الحديد بالحديد يُفلَح." فإذا رافع يعترض عليه بشدّة: "كّلا يا صديقي! لو لجأنا إلى العنف لخسرنا المعركة من وجهين: الأوّل هو أنّنا لا نملك من الأسلحة غير الحجارة وربّما كوكتيل الرّفيق مولوتوف، وهذا لا وزن له فى مواجهة ترسانة راكمها النّظام على مرّ السّنين لهذه الغاية. والثّانى أنّنا سوف نخسر المعركة المعنويّة. العالم متعاطف معنا لأنّنا نخوض معركة مصير بوسائل سلميّة، حضاريّة، تخالف أساليب النّظام. وهذا فى النّهاية هو الذى سيساعدنا على تحقيق النّصر بإذن الله."

• • •

منذ الصّباح، نزلنا إلى الشّارع من أجل لقاء مع التّاريخ يستعيد فيه الشّعب كرامته، ولم يكن لنا عهد بالمسيرات والمظاهرات. كيف ملأنا المدينة بالصّخب والغضب ونحن نواجه أداة قمع رهيبة؟ كنّا نغالب خوفنا، ننظر إلى بعضنا البعض، وإلى المتظاهرين من حولنا، فنستقوى على ضعفنا ونتظاهر بالشّجاعة، متمثّلين حكمة الأوّلين "شنقة مع الجماعة خلاعة[1]!" وهل نحن أقلّ رجولة ممّن نزلوا قبلنا، أو أنّ أرواحنا أعزّ ممّن قضوا نحبهم فى مقاومة الاستبداد؟ داخلنا شعور

1- الخلاعة فى العامية التونسيّة تعنى الفسحة والاستجمام خصوصا على شاطئ البحر.

غريب بأنّ الخوف الذى كان يمنعنا من النّزول إلى الشّارع هو الذى دفعنا إليه هذه المرّة. كنّا نرتعد خوفا ولا نقرّ بذلك. نضمّ أجسادنا إلى أجساد المتظاهرين مثلنا فيغمرنا دفء يزيل عنّا رعدة الخوف وتمتلئ أجسادنا بعزيمة كنّا نريدها جبّارة لا تُقهر.

• • •

رجال البوليس، كسائر القتلة، يراهنون على الخوف لحمل النّاس على التّراجع وتغيير مواقفهم والقبول بما يمليه عليهم النّظام. "هم كالرّيموت كنترول، علّق معين الجامي، من يملكها يوجّهها الوجهة التى يريد، فتلبّى رغبته بلا نقاش." ردّ عليه رافع بقوله: "بل هم ككلاب السّلوقي، تستجيب لسيّدها بالإشارة ولا يهمّها من تكون الضّحيّة."
ويسكت برهة يسبر عزمنا على المضيّ فى طريق قد لا نرجع منها البتّة، ثمّ يردف: " هذا النّظام الجائر يبيح لنفسه أن يواجه شعبه بالعنف والسّجن وحتّى القتل لأدنى سبب، لكأنّ الأسباب كلّها عنده جرائم: إبداء رأى مخالف جريمة، نقد رموز السّلطة ولو تلميحا جريمة، التّظاهر فى الأماكن العامّة جريمة... أمّا إذا التقى الرأى المخالف بنقد سياسة النّظام وإدانته فى مسيرة علنيّة فذلك تمرّد يستوجب القتل المباشر، فى وضح النّهار، دون الرّجوع إلى القضاء، حتّى لا تفقد الدّولة هيبتها كما يقول دعاته وناشرو أكاذيبه ومروّجو أباطيله.

وحين نسأله كيف نصمد أمام آلة قمع رهيبة، يجيب فى نبرة مَن يلقى درسا أمام تلاميذه: "ليس ثمّة ما يوحى بأنّ الماء خطير، أليس كذلك؟ هه! ورغم ذلك فهو قوّة مدمّرة. خذ مثلا حوض استحمام سعته متر مكعّب، أى ما يعادل وزن سيّارة متوسّطة الحجم... هذه الكتلة المائيّة نجد لذّة فى الغوص فيها، ولا نتصوّر أنّ إنسانا يمكن أن يتهيّبها. لنفرض الآن أنّ كتلة بهذا الحجم تصطدم بك وهى تتنقّل بسرعة خمسين أو ستّين كيلومترا فى السّاعة. ماذا ستكون النّتيجة؟ هه! نحن إذن ماء مسالم فى طور الرّكود، فإذا تحرّكنا معا صرنا أشبه بـ"تسونامي"".

• • •

لم نتحرّك. لم نتحرّك إلاّ فى حدود ما رسمناه لهذه الثّورة. تغيير النّظام وتجريف رموز الفساد، بالتّظاهر دونما عنف. دوّت فجأة طلقة اهتزّت لها الجموع، ثمّ تلتها ثانية نشرت الهلع والفزع فى النّفوس وسرعان ما ارتفع الدّخان يسدّ المناخير ويعشى الأبصار، وتحرّك الجميع فى فوضى يريدون اتّقاء الخطر. صار الفضاء أمامنا دخانا خانقا لا يرى المرء فى خضمّه أبعد من شبر، والنّاس تهرول ما بين شارع بورقيبة والشّوارع المجاورة هربا من الغازات النّفّاذة، والفتيات يصرخن فى فزع، ويتساقطن فى عدوهنّ ولا من مجير. من المبانى المجاورة ارتفعت أصوات رفيعة حادّة لنسوة يصرخن غضبا من سقوط القنابل على شرفاتهنّ.

ومرّت بنا ساعة ونحن فى ساحة معركة قطباها معتدون وضحايا. تنهمر القذائف من حولنا: رصاص مطّاطيّ، خراطيش متفجّرة، رصاص حيّ، وقنابل مسيلة للدّموع منتهية الصّلاحيّة، تنشر عند انفجارها دخانا يخنق الأنفاس ويصيب الصّدور بسعال قويّ، ويهاجم العيون يحرقها ويعشيها حتّى ما عدنا نجد فى الغمام طريقنا. فنخبط خبط عشواء ونصرخ:

نعم سنموت ولكنّنا سنقتلع القمع من أرضنا!

كنت فى حال أقرب إلى الغشية. غام نظرى فما عدت أرى أصحابي. لم أشعر إلاّ ويد تمتدّ إليّ ترشّنى بسائل خفّف عنّى التهاب الحروق. واربت جفونى قدر جهدى فرأيت بين غابة أهدابى المبتلّة فتاة تمدّنى بعلبة حليب وتقول لى بصوت لا يقبل النّقاش: "اشرب!" فشربت. ظريفة القدّ تصرّ جسدها فى سترة من الجلد الأسود وسروال دجينز، ملثّمة لا يلوح من وجهها غير عينين عسليّتين. مدّت يدها إليّ تساعدنى على النّهوض وإذا رجال ثلاثة من البوليس السّرّيّ أو من ميليشيا الحزب الفاشى ينهالون عليّ لكمًا وركلا وضربا بالعصيّ، فيما ارتمت عليها هي شرطيّة مربّعة فظّة الملمح، وطرحتها أرضا، وراحت تسحلها من شعرها كالخيشة.

وأنا أتلوّى على الأرض اللّزجة وأصرخ من شدّة الألم، رأيت وسط

غابة كثيفة من الدّخان صديقى رافع يندفع لنجدة الفتاة وهو يرفع يديه ويصرخ فى غضب، وإذا طلقة توقفه فى منتصف الطّريق. وضع يده اليمنى على خصره، تقدّم خطوة وهو يترنّح، نظر إلى كفّه فإذا هى حمراء مضرّجة بالدّم. كوّر قبضته ورفعها ثانية فى تحدّ وسقط.

• • •

من خلال التّلويح بالموت المرعب بالدّهس والقنص والسّحل كانت آلة القمع تهدف إلى زرع الرّعب فى النّفوس، ولكن ما حدث كان العكس.

أعمدة الدّخان تتعالى فى سماء المدينة، ودويّ طلقات ناريّة، وتفجيرات قنابل مسيلة للدّموع يجاوبها الشّباب بحجارة يقتلعونها من الرّصيف ويقذفون بها مبنى الدّاخليّة والمبانى المجاورة.

ونحن نهرب بجثّة صديقنا نرفعها على أذرعنا ونجرّها أحيانا على الأرض حين يخنقنا الدّخان أو تواجهنا صعوبة فى التّقدّم خطوة نتيجة الزّحام والفوضى، رأينا شابّا ربع القامة ذا لحية خفيفة ونظّارة طبّيّة، يلفّ رأسه ورقبته بكوفيّة فلسطينيّة. وقف يرسل عبر مكبّر صوت محمول أشعارا محرّضة:

حاصر حصارك لا مفرّ

سقطت ذراعك فالتقطها

واضرب عدوّك لا مفرّ
وسقطتُ قربك فالتقطني
واضرب عدوّك بي
فأنت الآن حرّ[1]

ازداد الغضب بالنّفوس عند سقوط أوّل قتيل. قتيل هو؟ لا، بل شهيد.

• • •

عندما وضعنا جثمان صديقنا رافع الهنشيرى على النّعش وهممنا بتشييع الجنازة، زغردت أمّه. زغردت فتداعت لها النّسوة بالزّغاريد. قديم هذا المشهد، وقديم تأثّرنا به حدّ البكاء. لطالما رأيناه فى تلفزيونات العالم، وطالما اقشعرّت له الأبدان. أمّهات من غزّة يشيّعن بالزّغاريد أبناءهنّ. وحولهنّ شباب يرفع عقيرته بالغضب ويعد السّابقين بالنّصر أو الشّهادة، النّصر على الأعداء. وأصوات الشّباب من حولى تتفجّر، تصرخ بالغضب وترفع إلى السّماء أيادى مقبوضة:

دم الشّهداء   ما يمشيش هباء!

تساءلت: "هل نعانى نحن أيضا من احتلال، ونواجه أعداء يريدون بنا شرّا؟ أعداء من لحمنا ودمنا، إخوة كنّا نحسبهم لنا رحمة فإذا هم نقمة ما بعدها نقمة."

---

١ –من قصيدة "مديح الظلّ العالي" لمحمود درويش.

وكان لا بدّ أن نستجمع أمرنا ونعود بعزم أكبر لكنس من نصّبوا أنفسهم لنا أعداء يطاولوننا في عقر دارنا ويضيّقون علينا سبل الحرّيّة. نعود إلى المكان نفسه في "وسط البلاد"، أمام ذلك المبنى الخرافي كمغارة الأغوال لنكسر أنوف من فيه ونرغمهم على الرّضوخ لإرادة الشّعب، ونهتف على مرأى ومسمع من العالم أجمع:

الشّعب يريد إسقاط النّظام!

الشّعب يريد إسقاط...!

نعم! الشّعب يريد...!

باريس في ٢١ مارس ٢٠١١

أعداء الضّابط عابد زيّان

ما يشبه النهاية

عندما عاد الضّابط عابد زيّان إلى بيته في مساء ذلك اليوم أو اليوم الذي يليه، عقب معركة لم يفهم ضدّ من خاضها، كان ممتقع السّحنة، مقطّب الجبين، محوّق العينين، فارغ النّظرة، مضطرب الخطى كمن ضلّ طريقه فى الظّلام، وقد بدا أنّ أمرا ما حبس لسانه. جلس يخطّ فى الطّعام بغير رغبة وعهده إذا تناول العشاء مع زوجته وأولاده أن يأكل بشهيّة، ويشرب كأس "مرناقه" بتلذّذ، وهو يتمطّق حينا ويتجشّأ حينا آخر دون أن يملك أحد حقّ الاعتراض عليه، ولو بإشارة عابرة أو إلماح خاطف، خوفا ممّا يجرّه عليه غضبه. لم تسأله حتّى امرأته عمّا جرى له، والحال أنّها استشعرت من شعره الذى ابيضّ فى يوم وليلة أنّ زوجها رأى الجحيم. قابلت ذلك، وكذا أولادها، بالصّمت. تلك هى القاعدة التى أرساها عابد زيّان داخل بيته. كانوا لا يكلّمونه إلاّ جوابا، لا سؤال ولا نقاش. وكان من عادته أيضا أن يسترخى بعد المحلّيات على أريكة الصّالون لقضاء السّهرة فى شبه انفراد، إذ تلزم

زوجته الصّمت وجوبا إذا رامت مجالسته في خلوته التي يمارس فيها طقوسه. يشرب قهوته، يدخّن غليونه، ويشاهد منوّعات على قناة من تلك القنوات التي لا تثير برامجها وجع الدّماغ: أغان راقصة، مسلسلات خفيفة، مقاطع تمثيليّة هزليّة، برامج لاستضافة فنّانات أضفت عليهنّ المساحيقُ وضاءةً في الوجه والملابسُ الحسيرة رشاقةً في القوام... بذلك، وبذلك وحده، يستطيع أن ينسى يومه، ويغلّق ذهنه عن التّفكير، ويطهّر ذاكرته ممّا ترسّب فيها من وعثاء يومه، فلا يطلع النّهار الموالي إلاّ وقد غدت صفحة بيضاء لا تشوبها شائبة. كان لا بدّ أن تكون كذلك كي ينهض في اليوم الموالي بما صار يدعى إليه بانتظام.

اللّيلة خاب مسعاه وباتت الصّور الرّهيبة ترتاده في كلّ آن، تعذّب منه العين والنّفس بحضور ملك عليه تفكيره. لقد أفلح في طمس أزيز الرّصاص ودويّ القنابل المسيلة للدّموع وانفجار الغضب، وفي إخماد الصّراخ والأنين، فما عادت تشغل ذهنه، إلاّ أنّه كان أعجز من أن يمحو من ذاكرته تلك المخلوقات التي تنبعث في لمح البصر، وتتوالد تباعا كأنّها خارجة من ماكنة تفريخ، وتلك الأجساد التي تزدري بالفيزياء وقوانينها، وتلك العيون المفتوحة على وسعها، وقد جفّ الدّمع في مآقيها وناب عنه حنق شديد ولهب مستعر وغضب جارف. ولعلّ ما أرّقه طويلا أنّه لم يهتد في خلوته إلى ما يمكن أن يواجه به المخلوقات

العجيبة تلك، في غد أو بعده، وقد صارت تستقبل الوسائل، التي كانت حتّى وقت قريب تثير الخوف لا بل الرّعب، كما يستقبل الأطفال هدايا العيد.

• • •

ما رآه عابد زيّان ولم يؤكّده أحد غيره

لو عاد أبي من قبره، وخيّرني بين تصديق هذه الحكاية وتطليق أمّي بالثّلاث لاخترت الحلّ الثّاني، لأنّها والله غريبة، عجيبة، لا يصدّقها عاقل؛ ولكنّ ما حدث، وأصبح حكاية أرويها لمن يقبل أن يصغى إليّ، رأيته بعينيّ هاتين، عينيّ اللّتين سيأكلهما الدّود والتّراب، والله على ما أقول شهيد!

لا أذكر كيف كانت البداية. ما أذكره أنّنا أُمرنا أن نقاتل قوما ليس بيننا وبينهم عداوة، بل هم من جنسنا وعرقنا وتربتنا، يعبدون ما نعبد وينطق لسانهم بما ننطق. قيل لنا هم أعداؤكم فآمنّا وأتينا مدجّجين بالعتاد والأسلحة لنرغم أنوفهم أو نقتلهم. كذلك تجرى الأمور منذ بدء الخليقة، فالدّولة تختار أعداءها وتملك حقّ ممارسة العنف ضدّهم متى شاءت. في مساء ذلك اليوم، عندما تأكّدت من أنّ البلدة التي يقيمون بها صارت محاصرة من كلّ جانب، أعلنت التّحرّك، أقصد من جهتي، حيث أرابط مع قوّات الأمن والحرس فيما كانت قوّات من الجيش

ترابط فى الجهة الأخرى. كانت النيّة تتّجه نحو التوغّل عبر مداخل البلدة إلى ساحاتها الكبرى لتشتيت "الأعداء" وفرقعة تجمّعاتهم إلى زمر ضعيفة يسهل إخضاعها فى مرحلة أولى، ثمّ إيقاف أفرادها ونقلهم إلى معتقلات ليُنظر فى أمرهم فى مرحلة ثانية. دلفنا إذن من المدخل الشّماليّ، وسرنا فى حيطة وحذر وسط شارع ضيّق تكدّست فيه أكياس فضلات مبعوجة، وإطارات مطّاطيّة محروقة، وخردوات تافهة مهملة، ولا حضور عدا صفير وانٍ لريح واهنة. كانت البيوت من حولنا ساكنة هاجدة كأنّما هجرها أهلها. بيوت وضيعة متراصّة بغير ذوق، بعضها تقشّر طلاؤه وغزته كتابات سمجة معادية ببخّاخات الدّهن وحتّى بالفحم، والبعض الآخر خال من اللّيقة تخرق أعاليه قضبان من حديد الخرسانة. وفجأة انهمر الطّوب والحجر والآجرّ على رؤوسنا، فأطلقنا النّار بعشوائيّة، فى ردّ فعل طبيعيّ دفاعا عن النّفس. أطلقنا النّار إذن على "أعداء" كنّا نحسّ بوجودهم ولا نبصرهم، وإذا الرّصاص ينهال علينا من كلّ صوب، وإذا البغتة تلجم ألسنتنا وترتسم على وجوهنا. بُهتنا! لم نكن نعرف أنّ لـ"أعدائنا" أسلحة! فالدّولة هى وحدها التى تملك حقّ حيازته، وهى التى ترخّص باستعماله لمن تشاء. هذا معروف، فمن أين جاؤوا بهذه الأسلحة التى يمطروننا برصاصها؟ لا أدري. المهمّ، تراجعنا. أجل، لم يكن من التّراجع بدّ

بعد أن وجدنا أنفسنا بلا غطاء، فى فوهة النّيران تحصدنا. اجتمعنا ورسمنا على الفور خطّة جديدة تقضى بتشكيل فريقين: فريق من الرّماة يمشّط السّطوح ويستقرّ بمواقعها الإستراتيجية، فيما يتولّى الباقون تطويق الأعداء ودفعهم إلى مجال الرّماية. وما أسرع ما خلت السّطوح من المخاطر، واندفعت قوّاتنا تصدّ "الأعداء" وتردّهم على أعقابهم إلى ما سمّيناه "مربّع الموت"، فضاء مغلق تحيط به المبانى فى شكل حدوة جواد، حيث انبرى رماتنا يصيدونهم كما يصاد الحجل والأرانب. ههههه! هذا كلّه مقبول ومعقول لا يختلف فى صحّته اثنان. ولكن ما حدث بعد ذلك يفوق كلّ إدراك. تصوّروا أنّ من يقتلهم رماتنا كانوا يعودون إلى الحياة بسرعة، وكأنّ الرّصاص الذى أصابهم أبيض كما فى الأفلام. شيء لا يصدّق، أليس كذلك؟ قلت فى نفسى لعلّ رماتنا يخطئون المرمى، ثمّ قلت: لا، مستحيل! فالذين اخترتهم لاعتلاء السّطوح هم من خيرة قنّاصتنا، هم قادرون أن يصيبوا ذبابة على مسافة كيلومتر، أن يفصلوا الكعاب عن النّعال الهاربة بطلقة، أن يقسموا الشّعرة إلى أربعة، أن يمرّروا الخرطوشة من منخر المرء إلى مخّه دون أن تلمس خنانه... باختصار، هم قادرون على أن يحقّقوا المعجزات. فركت عينيّ مرارا وأنا أرى المصابين يخرّون على الأرض، يتخبّطون فى دمائهم ويهمدون. وفى أقلّ من دقيقة، يتوقّف النّزف، ينهض

المصاب، ينفض الغبرة عن ثيابه ويبتسم، وكأنّه كومبارس فى فيلم. قلت أجرّب فيهم سلاحي، وقد بدأت أشكّ فى أعوانى وأسلحتهم ومراميهم وفى أشياء أخرى ازدحم بها رأسي، فإذا النّتيجة هى نفسها بل تزيد. ذلك أنّ الميّت صار يتضاعف عند انبعاثه. صعقت! كيف لا وقد صرنا نواجه بشرا غير ما عهدنا من البشر، أناسا نصيبهم فى مقتل فيموتون ثمّ يُنشرون هنا، فى هذه الفانية! أكثر من هذا. كان الواحد منهم ينبعث فى أكثر من صورة وأزيد من جسد كأنّه يستنسخ فى أجساد وأرواح متعدّدة.

وكان لا بدّ من إيجاد حلّ.

عرضت الفكرة على أعوانى فاستحسنوها.

كان اللّيل قد هبط بسرعة، والبلدة قد غاصت فى ظلام كثيف لا يمزّق سدله غير ومض خاطف لرشقات ناريّة بعيدة، أو حرائق تدفع بألسنتها إلى السّماء مع سحب كثيفة من الدّخان الخانق، حين صوّبت قوّاتنا فى وقت واحد حمم رشّاشاتها إلى صدور "الأعداء"، فإذا هم صرعى ممدّدون فى فوضى على الإسفلت البارد، ينزفون دماء فائرة. باغتناهم قبل أن يعودوا إلى الحياة فى نسخ متعدّدة. هجمنا عليهم هجمة رجل واحد، فحشرنا جثثهم فى أكياس من المطّاط، وأحكمنا ربطها من الجانبين، ثمّ هرعنا بها إلى أقرب جبّانة. على ضوء المشاعل

والكشّافات ومصابيح "اللاّند روفر" حفرنا حفرة عميقة لتكون مقبرة جماعيّة نوارى فيها الجثث.

كان الأعوان من حولنا يحرسوننا من هجوم مباغت، حين بدأنا نلقى الأكياس فى الحفرة، ونحن نهنّئ أنفسنا بوشك الخلاص، وفجأة، حدث ما لم يتوقّعه أحد ولم يحسب حسابه أحد ولم يصدّقه حتّى بعد حدوثه أحد. كانت الأكياس تهوى إلى القاع، وبدل أن تستقرّ فيه كما تستقرّ الكتل الجامدة، ترتدّ مثل كرات من المطّاط وتنطلق صاعدة حتّى تغادر الفوهة، وتواصل صعودها فتحلّق فى الفضاء مثل نيازك أو شهب أو لست أدرى ماذا، ونحن نشرئبّ نحوها بأعناقنا مذهولين، نرفع هامات وقفت شعورها، ثمّ ابيضّت تماما حين أبصرنا الأكياس تتفتّق وتطلق الأجساد التى حسبناها ميّتة، فإذا هى تهوى نحونا كالقذائف المخروطيّة فى سرعة عجيبة وفى زفيف يقتلع الأحشاء، تهوى ورؤوسها إلى الأسفل وعيونها المتّسعة، الممتلئة حنقا ولهبا وغضبا، ترسل شررا يحدث انفجارا حال ملامسته الأرض. جرينا ننشد السّلامة فى ذعر واضطراب، وقذائف تلك المخلوقات العجيبة تلاحقنا حيثما ولّينا وجوهنا. وفى غمرة جزعى زلّت بى قدماي، ووقعت على الأرض، وغُشى عليّ. ولا أدرى بعدئذ ماذا جرى. عندما أفقت فى أحد أقسام الطّوارئ، كنت أهذى بما رأيت فلم يصدّقنى أحد.

• • •

ما قاله حكيم طبّ عام بقسم الطّوارئ عن رواية عابد زيّان

الرّجل برأيي يعاني من برانويا ناتجة عن صدمة، ولا بدّ من عرضه على طبيب متخصّص. وما يرويه مخروم مشوّش قد يفسّر كما يلي:

احتمال أوّل

المعلوم أن بلادنا خالية من السّلاح، باستثناء ما تملكه القوّات النّظاميّة طبعا. قد يكون لأهالي البلدة المطوّقة أسلحة خفيفة، كبنادق الصّيد وربّما الكَلَشْنيكوف، بعضها قد يكون مهرّبا، وبعضها غنيمة معارك سابقة، ربّما... فاستعملوها في الدّفاع عن أنفسهم، غير أنّ ذلك أمر مستبعد.

احتمال ثان

قد تكون القوّات التي شاركت في المعركة لا تملك قيادة موحّدة، فلمّا أطلق أعوان الحرس والأمن النّار أصابوا أوّل من أصابوا جنودا مرابطين في الطّرف المقابل، ردّوا بنيران كثيفة وهم يحسبون أنّ العدوّ المحاصر يستهدفهم، فإذا الجيش والحرس والبوليس يتقاذفون النّيران في ما بينهم.

احتمال ثالث

وهو الأرجح، أنّ الضّابط عابد زيّان قد يكون فقد عقله أثناء المعركة، فصار يبتدع أشياء لا وجود لها على أرض الواقع، فمن الذي يصدّق

أنّ بشرا يستنسخون من بعضهم بعضا بعد أن يعودوا إلى الحياة؟ لقد لاحظت أنّه كان يخرم الكلام، أو تنتاب حديثه لحظات من سكوت متفاوتة، يفيق إثرها منتفضا كمن يصحو بغتة، دون أن يتذكّر البلدة التى جدّت فيها تلك الأحداث، ولا كيف كانت بدايتها.

• • •

هكذا، ربّما، كانت البداية

البيوت صامتة موحشة، وريح متعبة تتسكّع بينها، تنحنى فتنثر الغبار فى منعطفاتها، وتنهض فتقذف بالأوراق اليابسة لتعلو فى فضاء رماديّ كثيب. البلدة تبدو لمن يراها فى تلك السّاعة مطوّقة بالعربات المصفّحة والمدرّعات ومشاة من الحرس والبوليس والجيش كأنّها تشهد غزوة. يقفون جميعا وفى أذهانهم تدقّ طبول الحرب على أعداء خطرين لا بدّ من القضاء عليهم القضاء المبرم. ساعة من توجّس وترقّب وإصغاء لآخر تعليمات عابد زيّان، ضابط حليق الشّعر عريض الحوض زاده الزّيّ الرّسميّ قصرا وبدانة. يكون بداخل سيّارة "لاند روفر" خضراء فى لون الكبّار، يمدّ رأسه من سقفها المفتوح، ويطوف بالمتأهّبين يوصيهم عبر مكبّر صوت محمول بتوخّى الحذر. الحذر من أهالى هذه البلدة الموغلة فى الأرض اليباب، الذين كان قد خبرهم فى معارك سابقة. قوم أشدّاء لا يشكون وهنًا، ولا يخافون بأسًا ولا مشقّة.

يقف فى السّيارة يرهف السّمع إلى أصداء تحملها الرّيح. يخيّل إليه أنّ أصواتا تتنادى ليوم كريهة، تتعالى وتتّسع:

التّشغيل التّشغيل، لا وعود ولا تضليل!

التّشغيل استحقاق، يا عصابة السّرّاق!

انتهى عهد البايات، يا عصابة المافيات!

يسحب مسدّسه، وقد تمثّلت أمام عينيه مناظر الصّراع الوشيك. يتنفّس نفسا عميقا، ثمّ يرفع يده معلنا الهجوم.

باريس فى ١ مارس ٢٠١١

في وسط الطّريق

لم يشعر خليفة قدرى فى حياته بالقلق ينهش روحه بلا هوادة كما يشعر الآن، وهو يمضى فى طريق أوّلها معروف وآخرها معلّق فى كفّ القدر. منذ أن ترك الأوتوستراد، وأوغل فى هذه الطّريق المتوارية فى ظلمة اللّيل بين المروج والبساتين، وشعور غريب يربك تركيزه. كأنّ صوتا بداخله يهمس له فى نبرة حزينة بأنّه لن يعود من حيث جاء، ولن يمضى إلى غايته. مدّ يده يتلمّس زرّ الأمان، ثمّ التفت بخفّة يلقى نظرة على نوافذ السّيّارة. اعتراه نوع من الارتياح حينما اكتشف أنّها محكمة الإغلاق، وعاد يمدّ البصر أمامه يتبيّن تحت ضوء السّيّارة طريقه، ويرفع بين الحين والحين نظرات سريعة إلى المرآة العاكسة لعلّه يبصر خلفه ضوء سيّارة أخرى تزيل عنه شعوره بالوحدة. تقبّض قلبه إذ أدرك ألاّ أحد غيره يغامر بنفسه فى مثل هذا الوقت المتأخّر من اللّيل، فى طريق لم يسلكها من زمن بعيد ولا يعرف ماذا تخبّئ له.

مذيعة بمحطّة جهويّة هى التى أوعزت له منذ قليل بتغيير مسار رحلته

إلى موطن أهله فى تلك القرية السّاحليّة البعيدة عن العمران. كانت قد أوردت فى نشرات قصيرة متقطّعة أنّ الطّريق السّريعة لم تعد مأمونة، وأنّ حواجز عشوائيّة أقيمت عليها، ولا يعرف أحد من يقف وراءها، فاختار خليفة أن يحيد عن مساره الأوّل، وها هو يغوص فى العتمة والمجهول. لكم حرص أن يدرك غايته قبل هبوط اللّيل، ولكنّ الحرائق التى اندلعت فى تونس وضواحيها حالت دون مراده. كانت سماء العاصمة أدخنة وصراخا وهديرا وقذائف تترى، والشّوارع مغتلية تضجّ بسيّارات الشّرطة والإسعاف والخواصّ، وبأناس يجرون فى كلّ الاتّجاهات، بعضهم هارب من الجحيم، والبعض الأخر يحمل ما استطاع حمله من أشياء منهوبة من المحلاّت التّجاريّة والبيوت على متن درّاجات ناريّة ونقّالات وحتّى على الأكتاف. وجد خليفة صعوبة كبرى فى اختراق تلك الحشود المضطرمة والنّفاذ من تلك الفوضى العارمة بأخفّ الأضرار. التواء دارئة الصّدمات الخلفيّة، تقشّر صفيحة المعدن على مستوى الباب الأماميّ الأيمن، تكسّر المرآة العاكسة اليسرى... كلّ ذلك لا يهمّ ما دام قد نفذ بجلده سليما معافى. كان يحسب أن الخوف زال بزوال صور المدينة من مرآته العاكسة، وإذا هو يطلع له من حيث لا يدري. أحسّ، والسّيّارة تطوى المسافات بسرعة حذرة، أنّ أزيز المحرّك فى ذلك المكان القفر وذلك الوقت الخاوى

يتضخّم، ويحدث صوتا كطنين النّحل أو أنين مسترسل لجمع خائب يائس، وأنّ العجلات تهتزّ في تواتر منتظم على وقع خفقات قلبه كأنّها تعترض حدابا تفصلها عن بعضها بعضا مسافات متساوية.

شغّل سخّان التّدفئة وقد اعترى رجليه برد، وسرعان ما سرى بخار أنفاسه على الزّجاج الواقي من الرّيح، فغمره بطبقة كثيفة حجبت عنه الرّؤية. أوقف السّخّان وراح يمسح الزّجاج بمنديل من الورق أمامه. ومن بين غشاوة بخار أنفاسه لاح له ضوء غائم. أحدّ بصره يستطلع ما أمامه فإذا مصابيح الشّارع بأضوائها الصّفراء الشّاحبة تقترب. كانت تكشف عن مساحات صغيرة من ظلام كثيف تكتنفه الألغاز والأخطار وهي تتبع خطّ انحناء لا محيد عنه. وفجأة وجد نفسه في مواجهة نفر يقفون أمام حاجز من متاريس وضعت مثلما اتّفق. ضغط على الفرامل والتفت خلفه يريد النّكوص، ولكنّ آخرين سبقوه بإقامة حاجز وراءه يمنعه من التّراجع.

أحسّ بخواء يعتصر أمعاءه، وغصّة تعقد حلقه، وارتجاف يسري في كامل أوصاله، وانهمر الخوف والخفق الشّديد. لا مجال للهرب. كلّ المنافذ مسدودة. لا حلّ غير أن يسلم نفسه للأقدار توجّه مصيره.

أراد التّقدّم فتعطّل محرّك السّيّارة. لعنه في سرّه مرارا وهو الذي تداين لشراء هذه "الخردة" لعلّه يوهم نفسه قبل أن يوهم من حوله بأنّه رجل

ناجح. حاول إعادة تشغيله فلم يفلح. وفيما هو منغلق على نفسه داخل سيّارته، رآهم مقبلين نحوه. لم يدر من هم، وقد صار كلّ من فى البلاد مدعاة إلى الرّيبة. كانوا شبّانا، من أعمار متقاربة، بألبسة مدنيّة متواضعة، لا يحملون فى الظاهر أسلحة عدا بعض القضبان والهراوات. تجمّد داخل سيّارته وظلّ ينتظر، وإذا أحدهم ينقر البلّور جنبه نقرات متوتّرة، ويأمره فى صوت تصنّع له القوّة:

- اهبط!

معتدل القامة، ذو بنية متينة يصرّها فى معطف داكن، ولحية خفيفة تلتهم مساحة وجهه، ورأس كبير يغطّيه بقلنسوة من الصّوف الأسود تنحدر حتّى أذنيه. مال على السّيّارة متّكئا على سقفها بيده اليسرى فيما كانت اليمنى تلوّح بعصا غليظة ذات مقبض محزّز به خيط من القنّب، كتلك التى يستعملها عادة رجال البوب[1] فى تفريق المظاهرات. امتثل للأمر ونزل، فإذا الرّجل يطلب منه أوراق هويّته وأوراق السّيّارة ومفاتيحها.

"أعوان أمن!" قال خليفة فى نفسه وهو يسلّم الرّجل ما يريد. سرى فيه شيء من الطّمأنينة سرعان ما تبخّر، حين اكتشف ألاّ وجود حوله لما يدلّ على انتماء هؤلاء الرّجال إلى فرق الأمن. قلّب النّظر حوله

١- P.O.B. فرق الأمن العام.

بسرعة فلم يلح له غير ثلاثة أفراد يتابعون المشهد عند الحاجز الخلفيّ، لا سيّارة رسميّة، لا أسلحة، لا وسائل اتّصال "طولكي وولكي"... رآه يفتح صندوق السّيّارة يتفقّد محتواه، فيما انحشر آخران من رفاقه في جوفها يفتّشانه بلا طائل. ولّما غادراها وهزّا رأسيهما بالنّفي التفت الرّجل الأوّل إلى خليفة، وقد بدا أنّه زعيمهم، أو النّاطق باسمهم وسأله:

– مع مَن أنت؟

لو كان الوضع غير ما يجرى الآن فى كامل تراب البلاد لأجاب "النّجم" دون تردّد، إذ لم يكن يشغل الشّعب بكلّ فئاته غير فرق الكرة ولاعبيها ونتائجها المحلّيّة والقارّيّة، يستوى فى ذلك الشّيب والشّباب، الذّكور والإناث. أمّا وقد انقلب العرش المسيّر وفرّ العقل المدبّر فقد بات هذا السّؤال قضيّة وجوديّة، امتحان عبور إلى برّ الأمان، لا يتجنّبه الأتقى ولا الأشقى إلاّ بضربة حظّ، كما في اليانصيب. بم يجيب وهو لا يعرف من أمامه؟ وجوه مكدودة أو ناقمة تحجبها العتمة ولا تفصح ملامحها المظلّلة عمّا فى صدورها. بم يجيب وفى الجواب نصيب من المهلكة ولو بنسبة النّصف؟ كان يجهد فكره يبحث عن إجابة تنجيه، حين خطر بباله أن يقول ببساطة:

– أنا معكم أنتم.

تنفّس نفَس ارتياح كمن ظفر بضالّته، وإذا زعيمهم يسأله في نبرة من لا تنطلي عليه مثل هذه الحلول بسهولة:

- وهل تعرف من نكون؟

- أولاد بلاد!

- نعم؟

- توانسة، أحرار، شرفاء... ردّ خليفة باندفاع مثل محام مبتدئ يترافع في قضيّة خاسرة.

ازدرد ريقه وأضاف والجماعة يتبادلون في ما بينهم نظرات ارتياب:

- سيماؤهم على وجوههم، وهل في ذلك شكّ؟

كان يستعدّ لضحكة صفراء يليّن بها الجوّ الخانق، ويخفّف التّوتّر المشحون الذي يلمسه في كلمات الزّعيم وفي أنفاس زمرته، حين باغته الرّجل بالسّؤال:

- وما رأيك في التّجمّع؟

اضطرب خليفة وغصّ بريقه حتّى كاد يختنق، وقد غدا السّؤال سكّينا على حبل الوريد. أيّ إجابة تنقذه هذه المرّة وهو لا يعلم هل كان في حضرة ثوّار أم ميليشيا الحزب الذي حكم البلاد منذ الاستقلال بأسماء مختلفة؟

يا لبؤس نفسك يا خليفة يا قدري! هل كُتب عليك مرّة أخرى أن

تقامر، وأنت الذى أهدر شبابه دون جدوى فى البروموسبور، يراهن على مباريات الكرة طمعا فى مكسب يخرجه من وضعه البائس؟ كنت أعلنت التّوبة بلا رجعة، وها أنّ القدر يلاحقك، ويضع فى طريقك أناسا لا تعرفهم ولا يعرفونك، ورغم ذلك يصرّون على الرّهان، يريدونك أن تلعب برأسك، أن تضع حياتك رهانا فى لعبة قمار تعلم عن تجربة أنّها خاسرة، فمثلك لا حظّ له فى الحياة، فكيف بالميسر؟... ولكن من أدراك أنهم يريدون قتلك؟... وهل تظنّهم خرجوا للنّزهة؟ إنّهم لم يتركوا النّوم فى مثل هذه اللّيلة القارسة إلاّ للظّفر بالأعداء، وأنت قد تكون واحدا منهم. ربّما. إجابتك هى التى ستحدّد مصيرك. فكّر قبل أن تنطق، فالمرء بأصغريه، قلبه ولسانه. فكّر جيّدا، حياتك الآن معلّقة فى طرف لسانك، لم يبق الدّهر منها غير غصّة فى الحلق وشهادة على طرف اللّسان...

تذكّر ما قرأه مرّة فى حوار لكاتب سئل أيّ الانتماءات يختار: الانتماء للذّات أم للوطن أم لحزب سياسيّ، فردّد الإجابة التى حفظها عن ظهر قلب:

- الذّات فانية، والحزب زائل، والوطن باق.

لم يعلّق الرّجل على قول خليفة بكلمة بل ظلّ مطرقا وهو يعبث بلحيته، ثمّ عاد يسأل وكأنّه يستنطق أسير حرب:

- والرّئيس، ما موقفك منه؟

بُهت خليفة قدري وركبه رعب يخلخل الرّكب. تساءل ما الذى ينجيه الآن وقد ضاق الطّوق وحُمّ النّذير؟ لو قال "المخلوع" أو "الهارب" لاتّضح المراد، ولكن صفة "الرّئيس" وحدها لا تنبئ عن ميلهم إليه أو كرههم إياه. هل أمدحه فأكون كمن يمجّد شخصا أمام ألدّ أعدائه، أم أهجوه فأكون كمن يشتم ولدا أمام أبويه أو شيخ طريقة أمام مريديه أو نادى كرة أمام محبّيه؟

– هه، ماذا قلت؟ سأل الرّجل.

– ألم أقل لك إنّ الذّات فانية، والحزب زائل، والوطن باق؟

سرت فى الجمع همهمة تنمّ عن ضيق ونفاد صبر، قطعهما الرّجل بإشارة من يده، فخنست الأصوات وتعلّقت بفمه العيونُ ومالت إليه الأسماع.

– كلامك لا يقدّم ولا يؤخّر، قال، ولا يجعلنا نفهم هل أنت معنا أم علينا.

– معكم طبعا! صاح خليفة. ألم أقل لكم ذلك؟ أنا معكم، مع تونس، مع الشّعب!

– أيّ شعب وقد انقسم التّوانسة شقّين؟

يا لهذا اللّيل الذى لا ينقضي، وهذا الاستجواب الذى لا ينتهي، وهذا السّيف الذى يستقرّ عند النّحر حتىّ سكرات الموت، وهذا الـ...

لم يجد خليفة قدرى فسحة وقت إضافيّة كى يتمّ نحيبه ووجيبه. رأى الرّجل الماثل أمامه يرفع يده كأنّه يحذّر من حوله لخطر داهم، يميل برأسه يرهف السّمع لهدير محرّكات تقترب وتتضخّم. ثمّ تيقّن من صواب حدسه إذ أبصر واحدا من رفاقه الذين يرقبون الحاجز الخلفيّ يثب من مكانه ويصيح صيحة تردّدت أصداؤها فى اللّيل المظلم:

- الجيش!

وفى لمح البصر فرّ الجميع ثناء وفرادى، ثمّ تفرّقوا أشتاتا وتواروا عن الأنظار.

باريس فى ٥ أفريل / أبريل ٢٠١١

الحرباء

- ليس ثمّة ما يثير مخاوفي. البيت اشتريته عن طريق قرض من أحد البنوك، وكذلك السّيّارة... رخصة التّاكسى باسم كوثر زوجتي، ورخصة بيع التّبغ باسم ليث ابنى الأكبر... كيف حصلت عليها؟ من عرق جبينى طبعا. كلّ شيء موثّق، أى نعم، بالحجّة والدّليل. ليس فى حساباتى ما يثير الظّنون... ألو! أتسمعني؟... قلت لك لا شيء يثير مخاوفي. فليأتوا إن شاؤوا! أنا نظيف اليد واللّسان... لم أسرق ولم أمدح... ماذا قلت؟ القصائد! أيّة قصائد؟... آه! إن هما إلاّ قصيدتان... واحدة بالفصحى نشرت منذ سنين بجريدة انقطعت عن الصّدور ؛ وأخرى بالدّارجة... صحيح أنّ هذه لقيت رواجا بعد تلحينها وأدائها، ولكنّها مسجّلة بكنيتي، أبو سوسن، وهى كنية لا يعرفها أحد... أقصد لا يعرفها أحد غيرك. على أيّة حال، كلتاهما تشيدان بنهضة البلاد وتطوّرها ولا... ولا تمدحان الرّئيس بالاسم... هه! تمدحان التحوّل! ومن الذى لم يمدح التّحوّل؟ أنت! ها ها ها!

قطع الله عنك الماء والملح يا إبراهيم يا فاهم! ما قلتَه في "العهد الجديد" جدير بأن يُدرج ضمن الأرقام القياسيّة لكتاب "جينِاس"... لا، لا. لست أبالغ. هل أذكّرك بـ... ماذا قلت؟ لم تحصل من ورائها على أيّ مقابل! لا، ليس هذا موضوعنا. أنا أحدّثك عن عدد المرّات التي... ألو! ألو!...

"يبدو أن الخطّ انقطع."

يلقي العربي بوراس بجوّاله على مائدة الصّالون حذوه، ورأسه يمور بالأسئلة. يمدّ يده إلى الولاّعة يشعل سيجارة. يعبّ منها أنفاسا عميقة، ثمّ يتركها تحترق في منفضة كبيرة من الكريستال تتكدّس فيها أعقاب السّجائر وعلكة كلوروفيل ممضوغة ملوّثة بالرّماد. يلوي رجلا على رجل ويظلّ يقلّب النّظر حوله ويحرّك قدمه بعصبيّة.

"عليّ أن أحتاط لأيّ طارئ... أي نعم. كلّ ما يمتّ بصلة إلى "التّجمّع" ينبغي إتلافه، لا بل حرقه. الملفّات السّرّيّة، المراسلات، بطاقات الانخراط، الدّعوات، الشّعارات، المطبوعات، الصّور... حتّى جرائد "الحرّيّة" و"رونوفو"... كلّ شيء ينبغي أن يزال قبل أن... من يدري. قد يطلع عليّ واحد من الثّورجيّين الجدد، ليحاسبني على انتمائي! آه لو..."

قطع عليه رنين الجوّال هواجسه. تناول جهاز "النّوكيا" الرّماديّ بخفّة

ولكن سرعان ما أطفأه. كانت مكالمة خاطئة. تطلّع إلى صورة الرّئيس المثبتة في إطار أمامه. هاله سيادته بشعره الذى لا يزال على سواده كما فى أيّام شبابه، يلمع تحت الأضواء وكأنّه نجم من نجوم هوليود فى الخمسينات، وبابتسامة جامدة مثل بسمة إعلان إشهاريّ، صالحة لكلّ الأوقات، صبحا وعشيّة، ليلا ونهارا، فى البرد والقيظ، فى الانقلاب والاعتدال، يزفّها مع تحيّة عريضة يلوّح بها بذراعه المتينة ويده المفرطحة إلى عموم أفراد شعبه الذين بايعوه كلّهم، "كبير وصغير ومن يدبى على الحصير"، بل حتّى من فارقوا الحياة من زمن طويل، يطلّون من تحت اللّحود بقدرة قادر لا ليهتفوا باسمه، فهذا أمر لا يقبله العقل، ولكن ليدلوا له بأصواتهم، ثمّ يستعيدون أوضاعهم داخل قبورهم الدّارسة إلى أن يحين موعد جديد، ومواعيده كالمواسم تهلّ فى مواقيت معلومة.

كان العربى بوراس قد نزع الصّورة المؤطّرة من الجدار فى صدر الصّالون، فلاح مكانها الشّاغر فى شكل مستطيل فاقع اللّون يتميّز عن بقيّة الطّلاء، تحيط به طبقة مسودّة من الأوساخ. وضعها على الزّربيّة، مسنَدة فى وضع مائل إلى أريكة فى الجهة المقابلة، وبقى متردّدا لا يدرى ما المصير الذى سيختاره لها. تلفّت حوله يبحث عن حلّ، ثمّ وضع رأسه بين يديه واستند بمرفقيه إلى ركبتيه، وغاص فى صمت وتفكير. وفجأة وقعت عيناه على عينى سيادته، فرجّته منهما حدّة لم

يتوقّعها. بدا له أنّه ينظر إليه نظرة قاسية، نظرة من يملأ الغضب صدره. ارتدّ إلى الوراء يقاوم اختلاجا ركبه. تذكّر ما يشاع عن نفاذ بصيرته، وعن قدرته الخارقة على معرفة السّرّ وما يخفى، وهو البوليس المدرّب الذى كرع الجاسوسيّة فى حياضها العالميّة المشهورة، فحوّل نظره عن الصّورة لعلّه يهدّئ اختلاجه، وإذا بصديقه حميد زكرى على الجوّال يخرجه من كابوسه.

- ألو! لا، الحمد لله. أنا بخير حتّى اللّحظة ولا أدرى ما تخبّئه لنا السّاعات المقبلة. آه؟ لا، لا، أصداء المظاهرات والمناوشات تجيئنا عن بعد، ولم تشمل حيّنا، حتّى الآن على الأقلّ، وربّى يستر! ولكن قل لى يا حميد... هل الخبر الذى يروج منذ حين... أقصد... آه! صحيح؟ أنت واثق؟ أوه! أنا أيضا قلت ذلك. لا، بل توقّعته. كان لا بدّ من ثورة تقلب البلاد سافلها على عاليها. استبداد ومحسوبيّة ورشوة وفساد... شيء لم يعد يطاق. بالضّبط. لقد أكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب. ولكن قل لى... هل هربوا جميعا؟ صحيح! حتّى الحجّامة؟ أين سمعت الخبر؟ فى الجزيرة؟ لا، لا، أنا فى مكان يصعب علىّ التقاطها فيه... طبعا، طبعا. أنا فى الطّريق إلى شارع بورقيبة. لا بدّ أن أشارك الشّعب فرحته بطرد الطّاغية. قد نلتقى بعد قليل، إذا ما أتاح لنا الزّحام ذلك. تشاو، تشاو!

"هرب! زين العرب الذى بحّت حناجرنا بالهتاف باسمه، والدّعاء له بالبقاء فى سدّة الحكم أبد الدّهر... هرب!

البطل المغوار الذى لا يشقّ له غبار... هرب!

البعبع الذى يخيفون به الصّغار والكبار، المهاجر والمقيم، الطّليق والسّجين هرب! الطّاغية الذى لا يجرؤ النّاس على ذكر اسمه، ولا على ملء عيونهم منه... هرب كما يهرب الجبناء حين يحمّ الخطر! هكذا، دون مقاومة! حمل "شُلاّقاته وملاّقاته"[1] ولاذ بالفرار!

تذكّرت رفيق دراسة يدعى صليح. كان يستعرض عضلاته علينا فى ساحة المعهد دون أن نملك لردّه حيلة. وكان يتباهى بقوّته قائلا: "الهرسة والحديد!" أى أنّه يستمدّ تلك القوّة من إقباله على الأكل بنهم وممارسته رياضة الكمال الجسمانيّ، "العبار" كما كنّا نقول فى همس، لنسوّغ خوفنا منه وعجزنا عن صدّ عدوانه. حتّى تطاول ذات يوم على رفيق لنا اسمه عبد السّلام لا يوحى مظهره بالقوّة، ولكنّه فى الواقع صلب عتيد برغم قصر قامته ونحول عوده، فقد استطاع فى نوبة واحدة أن ينفض خصمه كما تنفض الشّكارة الفارغة ويلقى به على الأرض يسفّ ترابها. انهزم صليح يومها انهزاما شنيعا، وتضاءل منذ تلك اللّحظة فما عاد يرفع عينيه فينا، ولا أن يردّ حتّى على استهزائنا به. تماما كهذا الدّعيّ..."

١- حمل أشياءه التّافهة.

عاد العربي بوراس يتطلّع إلى الصّورة. خيّل إليه أنّ نظرة صاحبها لم تكن قاسية كما توهّم، بل مترجرجة، غائمة، يشوبها غموض، هو مزيج من خفيف الخبث وليّن الإثم ولزج الدّناءة. كأنّ في عينيه نظرة من خانه صمّام مؤخّرته في لحظة كبيسة، فانفرطت فضلاته في سرواله، فإذا هو يباعد بين فخذيه، ينظر إلى النّاس في ما يشبه البلاهة، عاجز عن المشي والجلوس والوقوف. خيّل إليه أنّ الماثل أمامه كان ينشر من حوله ريحا نتنة تسدّ المناخير. تراجع إلى الوراء قليلا مصعّرا خدّه فإذا جوّاله يرنّ قربه.

- ألو! إبراهيم! الخطّ انقطع منذ قليل لأمر أجهله. هه! ماذا قلت؟ لم يهرب! ولكن، ولكن... آآآه! إشاعة أطلقتها الجزيرة! هكذا إذن. ولكن لماذا تعادينا الجزيرة؟ ولأيّة غاية تنشر عنّا الأباطيل؟ حسد وغيرة دون شكّ. لا شيء عدا ذلك. هذا أمر مؤكّد. لا، لا، صدّقني. كنت واثقا من أنّها إشاعة، وإنّي لأعجب كيف تنطلي على عاقل. رجل في حنكة سيادته وخبرته في المسك بزمام الأمور لا يمكن أن ينخذل أمام حفنة من الخونة يموّلها أعداء البلاد. كلّنا نعرف أنّ له في هذا الباب تجارب وصولات مشهودة. أنا على رأيك. لا شكّ أنّه يعدّ لأولئك المخرّبين ردّا ساحقا ماحقا لا بقيا فيه ولا هوادة. تريد أن نلتقي! أين؟ في الشّعبة! طبعا، طبعا. لا بدّ من أن نخرج في مسيرة تنديد وتأييد،

وبأعداد غفيرة حتّى نعيد الفئران إلى جحورها. كالعادة، والله لا تقطع لنا عادة! أليس كذلك؟ ها ها ها! تشاو، تشاو!

ما كاد يقفل الخطّ حتّى داخله دبيب النّدم. قدّر أنّه تسرّع فى حكمه على قائد ضمن للبلاد صيتا تحسد عليه، وتعجّب كيف انخدع بإشاعة فراره، فمثله اعتاد أن يواجه الصّعاب بكلّ حزم، لا يميل ولا ينثني، يلقم أعداءه أخشن من الحجر ويلعقهم أمرّ من الصّاب. يهرب! وهل يهرب القائد ويترك جنوده وحدهم يناجزون العدوّ فى ساحة الوغى؟ ثمّ من لأنصاره من بعده؟

عاد إلى الصّورة يتأمّلها كالمعتذر، فإذا النّظرة هذه المرّة شديدة صارمة، فيها سخط وفيها تأنيب، أغضى لها العربى ونكّس رأسه. مازجه إحساس بالإثم، كأنّه خان الأمانة، أو أدار الظّهر لصديق بعد طول معشر. تردّد برهة ثمّ استجمع أمره ونهض يعيد الإطار إلى مكانه وقد هبّت فيه صحوة نشاط. وفيما هو يهمّ بتعليقه رنّ جوّاله مرّة أخرى.

- ألو! من على الخطّ؟... حمّودة! حمّودة من؟... آه! عمر حمّودة! هههههه! أعذرني، لم أتعرّف صوتك. هاه؟ ما الجديد؟ بالحقّ! متى؟ أنت واثق؟... أوه... طبعا. طبعا أنا فرحان، وهل فى ذلك شكّ؟ وماذا كسبنا من عهده كى نحزن على رحيله؟ القمع والاستبداد والفساد... بالضّبط، هو وزوجته وأقرباؤهما كانوا خارجين على

القانون، مثل عصابة من عصابات المافيا، أولاد الكلب كانوا يعيثون فى البلاد فسادا بلا حسيب ولا رقيب وكأنّها ضيعة على ملك والديهم.
قل لي، من يمسك البلاد الآن؟ الجيش! انقلاب عسكريّ، يعني؟... إذن ننتظر وسوف نعرف. لا، لا، اطمئنّ. أمورى واضحة، لم أقترف ما يمكن أن يثير النّقمة. النّاس بوجوهها.

"المشكل أنّ النّاس بوجوهها، تعرف حقيقة بعضها البعض بسهولة، فى بلد صغير كبلدنا لا تخفى فيه خافية. النّاس من حولى قد لا تجهل عنّى الأصل والفصل، حتّى الوضع الاجتماعيّ والحالة المدنيّة، ربّما... ولكنّها لا تعرف قطعا أنّى لست مواليا للتّجمّع ولا مناصرا لقائده أو موافقا على سياسته، برغم المظاهر، بل إنّى أكره السّياسة والسّياسيّين عن بكرة أبيهم، لا فرق عندى بين اليمين واليسار، المحافظ والتقدّمي، وما هتفت وطبّلت وزمّرت لصانع التّحوّل إلاّ لأنّ ذلك صار حالة عامّة لم يتخلّف عنها أحد، بل إنّ انخراطى فى الحزب لم يكن له من غاية سوى الحصول على البطاقة، سمسم هذا العهد المخروم الذى اختلّت فيه الموازين فأثيب الطّالح وعوقب الصّالح... لولا البطاقة ونشاطى ليل نهار لتعميم الدّجل ونشر الجهالة لما حظيت بما حظيت، ولكن كل هذا صار اليوم ككرة النّار تلهب ماسكها."

شمله اشمئزاز وراودته رغبة فى البصاق ولم يجد لبصاقه مستقرّا.

قاوم رغبته ما استطاع ونزل من فوق الكرسيّ وقد عدل عن إعادة تعليق الإطار. أسنده إلى طرف مائدة الصّالون البلّوريّة وجلس يفكّر في أيّ مكان يلقيه. وحانت منه لفتة فالتقى نظره بنظر صاحب الصّورة، وإذا الرّغبة تعاوده بإلحاح، وإذا هو ينفث في تشفّ بصقة مصفرّة خاثرة بلغت مبلغ الحاجبين ونشرت رذاذها على العينين ثمّ سالت منحدرة حتّى الأنف الكبير فالشّفتين. وفيما هو يتابع انحدارها رنّ جوّاله جنبه.

- ألو! حمّودة! لا، لم أغادر بيتي بعد. أه! ماذا قلت؟ لم يهرب! لم يترك البلاد إذن! آه، سيغيب بعض الوقت ثمّ يعود! هِم... من قال هذا الكلام؟ الوزير الأوّل! فهمت... فهمت الآن. اسمع، إنّه يدبّر أمرا دون شكّ، وستأتيك الأيّام بالعجب العجاب. صدّقني، تونس مقبلة على مجزرة. كلّ الدّلائل تشير إلى ذلك. أنصحك بأن تختار من الآن الصفّ الذي تُكتب لك فيه السّلامة. لماذا؟ لأنّه عائد طبعا، عائد بقوّة... أي نعم، إن هي إلاّ بضعة أيّام وسوف يحلّ قصاصه المبرم يحصد الرّؤوس التي طالت فوق ما يلزم. سترى. لا، لا. أنا لست خائفا. وممّ أخاف ما دمت في الموقع الصّحيح؟ هههههه! أنسيت أنّني من أنصار "السّبعة الحيّة"[1]، وأنّ لي فوق البطاقة أعمالا تذكر فتشكر؟

١- إشارة إلى تاريخ انقلاب بن علي على الرئيس الأسبق الذي يوافق السّابع من نوفمبر.

وأقفل الخطّ بيد مرتجفة. نشف ريقه وامتلأ صدره بالخفق الشّديد وهو يخرج من جيب سترته منديلا من ورق، ويميل على الإطار يمسح زجاجه بهمّة. خيّل إليه أنّ عينى الصّورة تلاحقان نظره، تبحثان عنه كأنّ صاحبهما جادّ فى طلب الثّأر. جهد العربى بوراس كى يتجنّب تينك العينين وهو يرفع الإطار ويضعه قائما على المائدة البلّورية. وفجأة أغمض عينيه وهوى على الصّورة يقبّلها كأنّه يطلب الصّفح وقد غشيته غصّة انعقدت لها حنجرته. وفيما هو يرفع الإطار بكلتا يديه ليعيده إلى مكانه، سمع صوتا خلفه يقول:

– خير ما فعلت يا أبي. قضى أمره، ولا بدّ أن تزيل أثره.

ليث ابنه الذى أراده صورة منه فى كلّ شيء، حتّى فى التمسّح والتّزلّف، ولم يفلح.

لم ينتبه العربى لقدومه. تسمّر برهة فى وضعه ذاك، ويداه تمسكان بالإطار، لا يدرى هل يرفعه أم ينزله. عاوده صوت ولده كرجع الصّدى فأيقن ما عناه، وفى حركة نازلة أعاد الإطار حيث كان منذ قليل، جنب المائدة، والتفت يقول:

– كُـ... كنتُ... كنتُ أنتظر عودتك... نعم، كنت أنتظرك كى تساعدنى على... على محو كلّ أثر لهذا ال... لهذا الطّاغية.

باريس فى 31 ماى / مايو 2011

خمس روايات لميتة واحدة

رواية لمجد شيتة[1]

صعد معي من أمام نزل إفريقيا وطلب منّي أن أوصله إلى أريانة. وجه من الوجوه التي أصادفها كلّ يوم. دون الثّلاثين بقليل، لباسه عاديّ، وسحنته صفراء كحبّة اللّيمون الذّاوية، ولا شيء عدا ذلك يلفت الانتباه. الوقت آخر الظّهيرة، وضوء النّهار في خفوت ينذر بقرب المغيب، ورذاذ خفيف يرشّ الإسفلت مثل بخّاخة الكولونيا. قلت في نفسي هي "الكورسة" الأخيرة وأستريح بعدها من عناء يوم لم يأتني منه غير وجع الدّماغ.

١- لمجد شيتة: وكنيته من مهنة مسح الأحذية التي شبَّ عليها في منحدر نهج سوق السّلاح قبالة حانوت ولد إبّا، ثمّ على قارعة شارع باريس قرب الكوليزي، قبل أن يصبح سوّاق تاكسي يجوب العاصمة وضواحيها طولا وعرضا في سيّارة "باسّاط" على ملك عرفه سعيد بوجلغة. في العقد الرّابع، غامق السّمرة، مشوّش الهندام، ذو ناب من ذهب يلمع كلّما انعكس عليه نور. عادة ما يستر رأسه الأصلع بقبّعة باسكيّة في الشّتاء وكاسكيت "نايك" سوداء في الصّيف، لا يتخلّى عنهما إلاّ عند النّوم.

بعد اجتياز ساحة باستور، دعاني إلى التّوقّف وتشغيل "الكلاكس" ففعلت. لاحظت أنّ صوته ضعيف، وأنّه يتكلّم بصعوبة كأنّه يغالب نفسه على الكلام. لحظات ثمّ أقبل شابّ فى مثل سنّه تقريبا، ألقى نظرة عبر الزّجاج، فتح الباب وركب بجانبه فى المقعد الخلفيّ. عاديّ هو أيضا، ليس له سمة خاصّة، خليقة وراس كما يقال. سلّم عليه بحرارة المشتاق ثمّ لزم كلاهما الصّمت. خلال الرّحلة لم يتبادلا ولو كلمة. أنا أيضا خيّرت الصّمت. ماذا يمكن أن أحكي؟ الجوّ رديء، والدّورى متوقّف، والبلاد شاعلة، والشّعب منقسم نصفين طالب ومطلوب، ولا ندرى من الطّالب ومن المطلوب. فكّرت فى تشغيل الرّاديو، ثمّ خفت أن يكون للشّابّين ممّا يذاع على أمواجه موقف يحرجني ويحرجهما، خصوصا فى هذا الظّرف، وربّما يقودنا إلى الخصام، فعدلت عن رأيي. وفيما السّيّارة تقترب من خطّ الوصول، مال الشّابّ الأوّل على صديقه يدعوه إلى دفع أجرة الرّكوب. اعتذر الصّديق. قال إنّ ما فى جيبه لا يكفي. وبعد أخذ وردّ، اقترح الأوّل أن ينزل صديقه ليأتى بما يلزم لتسديد الأجرة، ويبقى هو فى التّاكسى حتّى لا أظنّ بهما الظّنون. قلت فى سخرية: "هيه! ثمّ يمرّ الوقت ولا يعود صديقك، فتقترح أن تذهب فى طلبه، وتختفى بدورك... هيهات! هذه حيلة حافظها شربة ماء، مثلما حفظت كثيرا غيرها. اسمع. عندى حلّ آخر: أرافق صديقك إلى شقّته، وتبقى أنت رهينة

داخل التّاكسي، فإن دفع لى سرّحتك، وإن لم يدفع قدتك إلى المركز."
قال وهو يعضّ على شفتيه كالمتألّم: "أوكي!"

غلّقت عليه أبواب التّاكسى وسرت وراء صديقه إلى شقّة فى الطّابق الثّانى من عمارة مقشّرة الطّلاء ملوّثة بكتابات ورشوم بشتّى الألوان، تتكدّس عند مدخلها القذارة والأتربة. طرق الباب، وقال وهو يرفع أنملة سبّابته: "دقيّقة!" ودخل. وقفت قدّام الباب أنتظره. ومرّت الدّقائق طويلة دون أن يظهر، حتّى نفد صبري. هممت بطرق الباب فإذا أصوات خلفه تحتدم. قرّبت أذنى أتنصّت فجاءنى ما يشبه ولولة نائحة: "يا نارى على وليدي! يا نارى على كبدي!" فجأة انفتح الباب وأطلّ الشّابّ وبيده سكّين، فاستدرت أجرى لا ألوى على شيء، حتّى بلغت التّاكسي. فتحت بابها وانحشرت خلف المقود وانطلقت دون أن ألقى خلفى نظرة.

عندما صرت من ملاحقى فى مأمن، تذكّرت الرّاكب. خفّضت السّرعة ونظرت عبر المرآة العاكسة فلم أره. فرملت بقوّة، والتفتّ فإذا هو ممدّد على المقعد الخلفيّ كأنّه نائم أو مغشيّ عليه. فتحت الباب الخلفيّ لأتأكّد من أنّه لا يتصنّع النّوم أو الغشية، ومددت إليه يدى فى حذر أتلمّسه وأخضّه كى يستيقظ، فإذا هو هامد جامد. بُهتّ وأخذتنى رعدة الخوف. وفى غمرة ارتباكى رنّ هاتفى الجوّال. وجدت صعوبة

في نطق "ألو"، فأغلقت الجوّال على الفور. خيّل إليّ أنّي بلعت لساني وفقدت قدرتي على الكلام. سحبت يافطة الرّقم البلديّ من فوق التّاكسي وقفزت داخلها وهربت بعيدا عن العمران لأفكّر ماذا أصنع بالميّت. هل ألقي به على حافة الطريق أم أتركه في الخلاء أم أحفر حفرة وأدفنه فيها أم...؟ دون أن أهتدي إلى حلّ يرضيني لإحساسي بأنّي مراقب حيثما ولّيت وجهي، لا سيّما وأنّ سيل العربات لا ينقطع. كان واضحا أنّي طردت فكرة إعلام الشّرطة من بالي. ماذا أقول ومن يصدّقني؟

بقيت في حيرتي لا أتبيّن وجهة وإذا هاتفي يرنّ من جديد. مدام تيفاف، زوجة المعلّم، تلحّ عليّ بالقدوم في الحال إلى مقرّ عملها بدار الحزب. مضيت إلى مرآب السّيّارات في الطّابق الأوّل تحت الأرض حيث اعتدت أن أترقّبها. حيّيت الحارس عن بعد ونفذت إلى جوف المرآب بسلام. توجّهت إلى ركن لا يدركه الضّوء. قلّبت النّظر حولي، وأخرجت الجثّة فوضعتها بعد جهد جهيد في صندوق السّيّارة. كان قلبي يخفق خفقا موجعا وأنفاسي لهاثا متّصلا وجبيني متفصّدا بالعرق. جفّفت عرقي، وأشعلت سيجارة، ثمّ توجّهت بالتّاكسي إلى موقفها المعتاد، وبقيت أنتظر.

•••

رواية مدام تيفاف[1]

لم يتطاول عليّ فى هذا المكان أحد، لا صغير ولا كبير، ولكنّ سي سعيد، زوجي، ألحّ عليّ بالعودة رفقة لمجد شيتة. قال لى إنّ الوضع غير آمن هذه الأيّام، والسّبب أعمال الشّغب التى تقوم بها شرذمة من الحاقدين، رعاع لا يحبّون الخير لهذه البلاد، ويسعون لزعزعة أمنها واستقرارها، لولا وقفة القائد المهيب صانع التّحوّل المجيد. وقال لى أيضا إنّه يخاف عليّ من قطّاع الطّرق وقد تكاثروا فى الأونة الأخيرة، ومن أعمال العنف الطّائشة. لم أناقشه، فهو، بحكم منصبه بوزارة الدّاخليّة، أعلم بحقيقة ما يجري.

وجدت لمجد فى انتظارى فركبت، وانطلقت بنا التّاكسى فى شوارع مدينتنا المزدحمة حدّ الاختناق فى مثل هذا الوقت الذى يصادف خروج الموظّفين. كان اللّيل قد هبط بسرعة، والمبانى تلوح تحت أضواء

١ــ مدام تيفاف: تكره هذا اللّقب وتودّ لو تنادى باسمها: حسناء، لولا أنّها دميمة بشكل يجعل استعمال الاسم أقرب إلى النّبز؛ مثلما تكره أن تنادى بلقب زوجها: بوجلفة. رأس مكوّر يعلوه شعر خفيف محروق الذوائب زادته حصص الأصباغ والتجفيف والتّسريح احتراقا ونصولا. جسد غير متوازن بالمرّة، فالجذع طويل يبرز فيه نهدان مستديران ناهضان بعصارتهما، فيما الحوض عريض يشويه ردفان هابطان يوحيان بالقصر، خصوصا إذا ما ضمّهما سروال ضيّق. ولكنّ موقعها الاجتماعي، رئيسة قسم بدار الحزب، يفرض على الجميع إدارة ألسنتهم ألف مرّة قبل القدح فيها خلقا وخلقا خوفا من نقمة تكيلها حارّة ساخنة بغير إرجاء.

المصابيح الصّفراء كصور ألصقت بصفحة السّماء الدّاكنة، حيث لا نجم ولا قمر. فى منتصف شارع محمّد الخامس، انعطفت بنا السّيّارة يمينا باتّجاه حيّ مونبليزير تجنّبا لزحمة المرور، فإذا الزّحام أشدّ، وإذا مسيرة تتقدّم فى بطء وصخب وفوضى. لاحظت أنّ لمجد منطوٍ على نفسه كأنّ هموما تتنازعه. بادرته بالحديث لعلّى أخرجه من صمته وأعرف ما يشغله، فإذا هو يكلّمنى بلسان معوجّ وصوت مرتبك كلاما لا يربطه رابط. سألته عمّا به فأجاب بعد تردّد: "تعبان يا مدام." قلت: "ألا يكون السّهر لمتابعة أحداث السّاعة فى الفضائيّات هو الذى أتعبك؟" فردّ ردّ من يدرأ عن نفسه تهمة: "أنا لا أشاهد إلاّ تونس 7، والله! هى وحدها التى تقول الحقّ." وفجأة رأينا النّاس يهربون فى فزع كأنّ ثمّة من يلاحقهم. ضغط لمجد على دوّاسة البنزين بشدّة، وتوغّل فى نهج مجاور يتحاشاهم فاصطدم بحاجز أو عمود أو لست أدرى ماذا. اهتزّت بنا السّيّارة هزّة عنيفة. ندّت عنّى صيحة فزعة، وبحركة لاإراديّة وضعت يدى على صدرى أتلمّس قلبى الذى كاد يقع من هول الصّدمة.

كان النّهج فى هذا الرّكن الخالى من المارّة ضعيف الإضاءة، مزدحما بأكداس الأتربة وأكياس النّفايات. رأيت لمجد ينزل، يخطو على عجل نحو مقدّمة السّيارة حيث انحنى يحمل شيئا لم أتبيّن ما هو، ويتّجه

إلى صندوق السّيّارة مقوّس الجذع، ويودعه داخلَه. سألته حين عاد إلى موقعه خلف مقود السّيّارة عمّا جرى، فقال فى تفجّع وذعر: "مصيبة يا مدام! مصيبة!" ورقّ صوته كأنّه مقبل على البكاء. ثمّ قال فى ارتباك: "ماذا أفعل؟ ماذا أفعل يا مدام فى هذه المصيبة؟" عدت أسأله عمّا وضع فى الصّندوق الخلفيّ فأجاب: "رجل... أوه... شابّ... يعني... مترجّل صدمته... نعم، صدمته بالسّيّارة ولا أدرى هل... هل هو حيّ أم ميّت." وضعت يدى على فمى أكبت صرخة، وغاب هو حينا فى صمت وتفكير، ثمّ اختلجت شفتاه قليلا وقال: "لا بدّ من نقله إلى قسم الطّوارئ، أجل، دون تأخير. ما رأيك يا مدام؟ هه! هو حادث مرور... حادث وقع عن طريق الخطأ... قضاء وقدر يعني. أنا لم أتعمّد إصابته. والله! أنا لا أعرفه. ليس بينى وبينه..." وغصّ بريقه فسكت.

هبط عليّ الخبر مثل "بوتلّيس"[1] فى اللّيالى القارسة زمن طفولتى البكر. فقدت القدرة على الحركة، وعلى الكلام، وحتّى على التّفكير. تمثّلت لى الفضيحة على ألسنة المغرضين، خاصّة فى هذا الظّرف المضطرب. سيجدها أعداؤنا فرصة يتّهموننا من خلالها بالقتل، "قتل نفس عمدا مع سبق الإصرار والتّرصّد"، وتهما أخرى

١- عبارة تطلق على الكابوس.

لن يتخلّف "أدمينات" الفيسبوك فى تلبيسنا إيّاها. آه من أولئك الأوغاد! لكَم سعينا لإخراس أصواتهم، دون جدوى، بل إنّهم صاروا لا يتورّعون عن السّخرية من أجهزتنا، إذ سمّوها "عمّار ٤٠٤" وبدؤوا يشنّون ضدّها حملة أطلقوا عليها "سيّب صالح!" هه! سيّب صالح! تعسا لتلك اللّغة، لغة الأوباش والمجرمين! سنرى. العبرة بالختام. لا بدّ إذن من التّريّث وتحكيم العقل. ومن أقدر من زوجى فى هذا المضمار! اتّصلت به كى أستشيره، فإذا خطّه مشغول. أعدت الكرّة مرّات فلم أفلح. خطر ببالي، بعد أن استغلقت أمامى الحلول، أن يعود "الجمل بما حمل" كما يقال فى المسلسلات المصريّة، وليدبّر زوجى بعدئذ رأسه! هدّأت لمجد وأقنعته بما اعتزمت، فمضى فى صمت ذليل حتّى باب الفيلاّ، حيث قاد بنا التّاكسى إلى المستودع. ولكن ما كدت أجتازه وأدخل المطبخ حتّى فاجأتنى حويتة، الخديمة، والذّهول يوسّع عينيها:

"ما هذا الذى يلطّخ جواربك يا مدام؟ "

•••

رواية حويتة الخادم[1]

استقبلتها كالعادة وهي تغادر الجراج من بابه الخلفيّ وتدخل المطبخ. نظرتُ فإذا وجهها يخفي خلفه ما يخفي. نظراتها مخطوفة، سحنتها صفراء كأنّ الدّماء انقطعت عنها. صحيح أنّها خليقة ربّي، ولكن المساحيق كانت تلطّف قبحها فتبدو مقبولة نوعا ما، أمّا في تلك اللّحظة... لم أسألها عمّا بها لما أعرفه من طبعها، فهي تكره أن يسألها من هم في خدمتها مثل تلك الأسئلة، وهي من هي، مسؤولة كبيرة في الحزب، تفتح الأبواب بكلمة، وتسدّها بكلمة. كانت تستعجل المرور إلى الصّالون كي تستريح، وعهدها أن تتوقّف بعض الوقت لتسألني، وهي تدخّن سيجارتها الرّفيعة المعطّرة بريحة الفليّو، عمّا أنجزتُ وما لم أنجز من الأعمال التي كلّفتني بها، وتسألني أيضا عمّن خاطبني في التّلفون في غيابها، وعن العشاء... حين نبّهتها إلى أنّ جواربها ملطّخة. مادّة حمراء في لون الدّهن أو الصّبغة تلوّث الجوربين عند مستوى الرّبلتين وتنحدر إلى الكعبين. مالت بجذعها تتفقّد أسفلها

١- حويتة الخادم: اسم على مسمّى. ضامرة الجسم، نشيطة الحركة، خفيفة اليدين كما يقول العوامّ، زنبقيّة لا تستقرّ على رأي، فضوليّة لا يغثّ عليها أيّ كلام، خصوصا إذا نطقت به الفضائيّات العربيّة. مظهرها لا يوحي بأعوامها الأربعين، برغم المشقّة والجهد في بيت مدام حسناء تيفاف حرم بوجلغة، ولا تعدم مسحة من جمال جلبت نحوها تحرّش روّاد البيت وأهله.

ورجلاها ترتجفان، فامتلأت عيناها بالذّعر، وندّت عنها صيحة فزعة وهى تخلع حذاءها وجوربيها كمن يتخلّص من أفاع التفتّ برجليه. ألقت بها على أرضيّة المطبخ، وهرعت دون شكّ إلى بيت الاستحمام.

انحنيت أتأمّل أشياءها عن قرب وأتثبّت منها، فإذا المادّة التى تلوّثها أشبه بالدّم. تساءلت من أين يجيء الدّم وهى من المكتب إلى السّيّارة، ومن السّيّارة إلى البيت، تكاد رجلاها لا تلامسان الأرض. ثمّ خطر ببالى أن أغتنم انشغالها بالاستحمام لأسأل شيتة. هو الذى عاد بها، أعرف ذلك من زفيف المحرّك، ولا شكّ أنّه يعلم. المسألة برأيى فيها واو. اضطراب وذعر واستحمام على عجل... كلّ ذلك أشعل فتيل الرّيبة فى صدري.

لقيت شيتة فى الجراج ونصفه الأعلى داخل صندوق التّاكسي. على ضوء أنبوب النّيون المثبت فى السّقف رأيته يشتغل. كان منهمكا فى تنظيفه أو إفراغه من أشيائه، فلم ينتبه لوجودى إلاّ حين خاطبته. اهتزّ لصوتى هزّة عنيفة، وركبه رعب من صادف شبحا فى جبّانة. قلت فى استهزاء: "ووه! قلبك ضعيف إلى هذه الدّرجة؟" فإذا هو يغلق الصّندوق فى حركة متشنّجة، يسند إليه ظهره ويفرد ذراعيه كأنّه يريد حمايته. سألته: "يا غلبة! ما بك؟" فردّ بسؤال: "ما الذى جاء بك؟" قال ذلك فى جفاء لم أعهده فيه وهو الذى لا يترك فرصة لمراودتى

وكأنّى فى عينيه صيد سهل، يمكن أن "يدوّر بى بول الذّيب" متى يشاء. قلت: "ما الذى جرى لمدام تيفاف؟"، "ما بها؟" قال. "ثيابها ملطّخة بشيء فى حمرة الدّم" قلت. فجأة رأيت الذّعر فى عينيه والارتجاف فى يديه وهو يشعل سيجارة يحاول أن يدارى بها اضطرابه. نفث الدّخان من فمه ومنخريه مرارا، ثمّ قال: "لعلّه الحيض." ضحكت ضحكة لا تناسب المقام وقلت: "يكبّ سعدك يا شيتة! أيّ حيض وهى فى سنّ اليأس؟" قال بعد صمت: "لا أدري." جذب أنفاسا أخرى، عميقة متتالية، ثمّ ألقى بعقب السّيجارة وداس عليها بحذائه فى حنق وغلّ. وإذ تقدّمت خطوة باتّجاه مؤخّرة التّاكسي، عرّض جسده ليحول بينى وبينه. مددت إليه يدى أربّت على كتفه، وقلت بصوت خافت: "شيتة! سرّك فى بير. ما الذى تخفيه عنّي؟" قلّب نظره حوله فى توتّر كأنّه يحاول أن يمنع دموعا توشك أن تغلبه وقال بالنّبرة الخافتة نفسها: "اسمعيني. أنت حويتة، وأنا مجرّد وزقة، كلانا لا حول له أمام الأسماك الكبيرة، الضّارية، التى لا تعرف الرّحمة." قلت: "ووه! ما لك تتكلّم اليوم بالألغاز؟" فقال: "نصيحة. خير لك ألاّ تعلمي!" وقبل أن يندّ عنّى حسّ، سمعت مدام تيفاف تناديني، فتركته وعدت أدراجي. فى طريقى إليها، لم أعثر فى المطبخ على الحذاء والجوربين. "أين كنت؟" بادرتنى بالسّؤال وهى جالسة أمام مرآة صوان التّجميل

تصرّ جسدها ببشكير وتجفّف شعرها بالسّيشوار. لم يعد أمامي إلاّ أن أقول الحقّ، أو نصيبا منه على الأقل. اعترفت: "في الجراج." فتوقّفت فجأة عن التّجفيف. أسكتت الآلة، والتفتت إليّ وفي عينيها نظرة غريبة: "وماذا تفعلين في الجراج؟"، "قلت أستعين بشيتة كي يسرّح السّيفون". تريّثت قبل أن تسألني من جديد: "وماذا يفعل الآن؟"، قلت: "ينظّف صندوق التّاكسي." انتفضت بقوّة أرعبتني وقالت وعيناها في عينيّ لا تحيدان: "وهل ... هل رأيت شيئا... لنقل... غير عاديّ؟" قلت: "لا." أشاحت عنّي وجهها وقالت تحذّرني: "لا تعودي إلى الجراج حتّى آذن لك، فهمت؟"

عدت إلى المطبخ حيث لمجد جالس ورأسه بين كفّيه. ناولته قهوة مرّة يعيد بها صفاء ذهنه، وأعلمته بأنّ المعلّمة تطلبه. وفيما هو يلتحق بها في الصّالون، تسلّلت إلى الجراج. شيء بداخلي كان يهتف بي أنّ العمليّة فيها واو، وإلاّ فلماذا يحذّرني لمجد شيتة من الأسماك الكبيرة، وتحذّرني مدام تيفاف من دخول الجراج بغير إذنها؟ أشعلت النّور ومضيت بخفّة إلى التّاكسي. ضغطت زرّ الصّندوق فانصاع. رفعت الغطاء بحذر شديد وفي يديّ رعدة الموت وفي قلبي قرع الطّبول فلم أجد إلاّ ما يوجد عادة في صناديق السّيّارات: عجلة قديمة، رافعة، ذراع تدويرها، صفيحة زيت محرّك، قنّينة ماء... وأكياس بلاستيك.

داخلني وسواس تفشّت بقعته وظننت بعقلي العلّة. ثمّ قلت إنّ مدام تيفاف وذلك النّمس شيتة ربّما رسما لي مقلبا كي يسخرا منّي. وبينما أنا أهمّ بمغادرة المكان، لمحت كتلة يحجبها الظّلّ قرب عجلتي السّيّارة الأماميّتين. تقدّمت خطوة، ونظرت فإذا جسد مسجّى. صرخت صرخة فزع قصيرة اختنق لها صوتي، ووقعت على الأرض مغشيًّا عليّ.

عندما ثبت إلى رشدي، لم أجد الجثّة ولا التّاكسي ولا لمجد شيتة.

غادرت الجراج وفي الذّهن صورة مطبوعة. صورة ذلك الجسد الممدّد بلا حراك، جسد شابّ في مقتبل العمر، ومن فتحة قميصه المفكوك الأزرار تلوح نقاط غليظة داكنة الزّرقة تشوّه صدره. كأنّها حروق. كأنّها آثار كيّ.

•••

روايةُ نجيب روكي[1]

عندما هاتفتنى مدام تيفاف أحسست على الفور أنّها فى ورطة. بدا ذلك فى صوتها المذعور، صوت أشبه بصيحة استغاثة باكية: "تعال يا روكي! قالت لي. تعال بسرعة! لا تتأخّر!" قدّرت أنّها ربّما تعرّضت لعدوان، بعد أن باتت البلاد تغلى كالطّنجرة. تصوّرتها فى مواجهة لصوص أو سلفيّين أو مجرمين، فجئت بأسرع ما قدرت عليه، كعادتى كلّما طلبتنى لمسألة من المسائل، لأنّي، بصراحة، مدين لسى سعيد، زوجها. مدين له بكلّ شيء. أجل، فله الفضل فى تشغيلي، وفى ترقيتي، وفى تعييني قريبا منه، وفى أمور أخرى لا يحظى بها فى بلادنا إلاّ المقرّبون. مدين له أيضا بتدخّلات عديدة أنقذتنى من التّتبّع القضائيّ وربّما الفصل نتيجة تجاوزات لا حصر لها، فأنا أعترف بأنّى

١- نجيب روكي: ملاكم سابق، تتلمذ على الرّزقي القيزانى فى قاعة البلديّة بنهج البنّا، وورث من مبارياته زمن الشّباب عرنينا محطما وندبة فى جبينه تخرق الحاجب الأيسر فيبدو خاليا من الشّعر، مثلما ورث قبضة قويّة كالمعدن المصمت ويدين شديدتين كالمعصرة. وبالتحاقه بسلك الأمن، كانت تلك التّجربة شهادته التى فتحت له أبواب التّرقية، ولفتت إليه انتباه سعيد بوجلغة، فقرّبه وجعله من خلصائه. كان يعشق أفلام روكى بَالْبُوا حتّى سمّاه أصحابه وزملاؤه باسم بطله المفضّل.

ضعيف أمام الخمر، وأمام المرأة، وبأنّ طبعي حام، وبأنّي سريع الانفعال مثل محرّك "فيرّاري" لا يحتاج انطلاقه لأكثر من ربع دورة.

وجدتها متوتّرة، ترشف كأسا من البراندى وتدخّن بعصبيّة، وبجانبها لمجد شيتة، سوّاق التّاكسي، ذاهل ذهول من فقد أحد أقربائه منذ لحظات. نهضت مدام تيفاف إذ رأتني، وقالت بصوت مرتجف وهى تمسك بذراعى بقوّة: "مصيبة يا روكي! مصيبة!"، سألتها: "ما الأمر يا مدام؟"، "فى بيتنا قتيل" قالت. "آه!" تصوّرت كلّ شيء إلاّ هذا. "قتيل؟" أعدتُ وعيناى تتّسعان من فرط الدّهشة، "نعم، قالت، وسى سعيد لا يردّ على مكالماتي، وسهير ابنتى قد تعود من الكليّة فى أيّة لحظة. أنا حائرة، حائرة لا أدرى ماذا أفعل!" هدّأت من روعها وسحبت شيتة على انفراد لأسأله. وما كاد يخبرنى بما جرى حتّى سبقته إلى الجراج. كان لا بدّ أن نقوم باللاّزم بأسرع وقت ممكن. لا مجال للتّردّد. فوجئت بوجود حويتة، تلك الفاجرة المتمنّعة، طريحة الأرضيّة الباردة قرب الجثّة. تركناها ممدّدة فى وضع صليب، وقد غطّى الشّعر صفحة خدّها وبدا أحد وركيها عاريا بشكل يغري، أخ يا ابنة الذين! ووضعنا الجثّة داخل التّاكسي. "سر بنا!" قلت لشيتة بلهجة لا تقبل النّقاش. قال: "إلى أين؟"، سألته فى شيء من التّهكّم: "أين ننقل الجرحى فى العادة؟"، اعترض بقوله: "ولكنّه مات!" قلت: "كلاّ! لم يمت. لم يمت بعد."

كنت أكذب طبعا، فالرّجل فارق الحياة منذ ساعات طويلة، ليس نتيجة حادث مرور كما يدّعى شيتة، بل من أثر نزف فى مستوى الذّكر، فى ما يبدو. واضح أيضا من الحروق والكدمات والخدوش فى أنحاء جسده أنّه خضع للتّعذيب، تعذيب مقنّن لا يجيده غير رجالنا، وهو ما يحيّرنى فعلا. فكلام شيتة لا يستقيم إلاّ إذا تصوّرنا أنّ الهالك وقع تسريحه من أحد مراكز الأمن بعد تعذيبه، فساقه حظّه المنكود أمام تاكسى لمجد! المشكلة أنّ الحادث وقع بحضور مدام تيفاف، وأنا أستبعد أن تكون شاهدة زور. لأيّة غاية! كنت لبّست التّهمة لشيتة ونفضت يديّ من هذه المشكلة، لو لم يكن يعمل لحساب سى سعيد. كأن أحثّه على التّوجّه إلى مكان خارج العمران، غابة قَمَرْت مثلا، أو شطّ روّاد، حيث لا سائر يسير ولا طائر يطير، وأرغمه على حفر حفرة لمواراة الميّت، وفى الأثناء أختفى لأخبر الشّرطة عن مكانه، فتقبض عليه متلبّسا بجرمه، وتنتهى المشكلة. طردت هذه الفكرة، ولم يلح لى بعد تفكير إلاّ الحلّ التّالي: قلت نمضى إلى أحد المستشفيات، فنلقى الجثّة فى مكان لا يدركه الضّوء، وننسحب. من الذى سيلتفت إلى القاتل، والجثث تتوالى على أقسام الطّوارئ بغير انقطاع؟ ثمّ إنّ الأطبّاء والممرّضين منشغلون بالجرحى، أمّا الموتى فليس لهم إلاّ ثلاّجات حفظ الجثث. كذلك قرّ قراري. وبذلك أخبرت شيتة. هو لم يخرج

عن صمته مذ غادرنا فيلاّ سي سعيد بضفاف البحيرة. كان ممتقع اللّون يمسك عجلة القيادة بيد مرتجفة، فيما الأخرى تمسك بمبدّل السّرعة كما يمسك النّاقه من مرض طويل عكّازه. وعدت أتساءل عن سرّ هذا الشّابّ المجهول، عن كيفيّة وصوله إلينا، وعن آثار التّعذيب على جسده، وفي صدري حيرة لا تبتلّ ولا تنطفئ. لو كان موته بالرّصاص لقلت إنّه من فعل القنّاصة الذين تمركزوا منذ أيّام على سطوح المباني وفي شرفات بعض المؤسّسات يرصدون كلّ تحرّك مريب، ويواجهون أصحابه بالذّخيرة الحيّة، ولكن أن يقضي نحبه...

وردّتني إلى يقظتي صيحة رعب حادّة يطلقها شيتة: "آآآآآآآآه!" ودويّ اصطدام عنيف مباغت بحاجز لم أدر أكان جدارا أم شاحنة أم شجرة... مرقت إثره مرميًّا كالقذيفة من الزّجاج الواقي من الرّيح قبل أن يغمّني الظّلام.

•••

رواية سعيد بوجلغة[1]

كنت أعرف أنّ سهير على علاقة به، تبادله الرّسائل على شبكة الإنترنت، وتسهر اللّيل "تشاتي" معه كما يقولون. وكنت أغضّ الطّرف عن ذلك وحتّى عن أخبار لقاءاتهما خارج الكلّيّة، فى المنتديات والفضاءات الثّقافيّة وكافيتريا المراكز التّجاريّة... فما ذلك فى النّهاية سوى طيش شباب ستكون الأعوام كفيلة بتقويمه، ولكنّى لا يمكن أن أغفر بحال ما جدّ فى الأونة الأخيرة، لأنّ فى السّكوت عنها تواطؤا ضدّ مصلحة البلاد. كيف أسكت وقد عثرت فى صفحتها بالفيسبوك على رسائل يحرّضها فيها ذلك الدّعيّ على الثّورة، والالتحام بصفوف الشّباب الثّائر، وكلام آخر ترتجف لهوله فرائص رجال الأمن... مع صور وفيديوهات وشعارات تندّد بالنّظام وتنذر باقتلاع جذوره؟ نعم، هكذا. ذلك النّذل يريد أن يجرّ ابنتي، أنا الذى أقسم على شرفه بحماية

١- سعيد بوجلغة: فوق الخمسين بأعوام، لا يناسب لقبه هيئته، فهو أنيق المظهر، معتدل القوام، ذو قسمات تميل إلى الملامح الأوروبية كأنّ له أصولا مالطيّة أو طليانيّة، ولو أنّ جماله تخالطه قسوة من عبسة بين عينين زرقاوين تلمعان بغضب قلّ أن يزول. لا شيء يقرّبه من حسناء سوى ما ورثته عن والدها الذى كان تاجرا ذا صيت فى سوق البركة بالمدينة العتيقة. استطاع فى الأعوام الأخيرة أن يحوز رضا السّلطة ويقفز إلى رتبة رائد بل إنّ اسمه كان كثيرا ما يتردّد على الألسن لمنصب مدير الأمن كلّما جدّت ترقيات ونُقل.

الوطن المفدّى، إلى الخروج عن القانون، فهل أسمح له؟ كلاّ وألف كلاّ ! ! ! وكان لا بدّ من أن أرسل رجالي يقبضون عليه، ويجيئونني به، لا لأنتقم منه، بل لأخيفه وأحذّره من مغبّة استدراج ابنتي، وربّما أردّه عن غيّه. ولكن حصل ما لم يكن في الحسبان! شاء له حظّه التّعس أن يوضع رهن الإيقاف مع مجموعة شبّان ألقي عليهم القبض في حالة تلبّس: منهم من حطّم واجهة بعض المتاجر، ومنهم من أضرم النّار في بعض المؤسّسات العامّة، ومنهم من قذف البوليس بالحجارة وحتى بالزّجاجات الحارقة، وجرائم أخرى يندى لها الجبين، فكان من أمره ما كان... إلى أن جاءت سهير، ابنتي، ترجوني، والعين منها دامعة، أن أتدخّل للإفراج عنه بعد أن علمت بمصيره. والحقّ أقول إنّي وجدت صعوبة في إنقاذه، لأنّ عيون الحزب والحكومة والقصر منصبّة على هذه الشّرذمة المفسدة التي تحاول زعزعة الأمن، حتّى باتت حديث السّاعة في وسائل الإعلام والحلقات والنّوادي ومجالس السّهر...

كانت سهير في حال لا تسرّ إلاّ العدوّ، فأذعنت. ابنتي، وحيدتي، ولم يسبق أن رفضت لها أيّ طلب. أرسلت من يطلق سراح الشّابّ، وكلّفته بأن يقف معه أمام نزل أفريكا حتّى قدوم تاكسي من نوع "باسّاط" سوف تتولّى نقله إلى بيته، ويا ناس ما كان باس! ولكن ما الحيلة وذلك الأحمق لمجد شيتة لا ينفّذ إلاّ ما في رأسه البليد. راس اللّحم! قلت

له: "أوصله!" فإذا هو يبحث عن استخلاص ما في العدّاد حتّى حلّت المصيبة. الحاصل الشّيّات يقعد شيّات!

والآن، ماذا أقول لحسناء؟ بضاعتنا ردّت إلينا! وماذا أقول لسهير حين تعلم بما حاق بزميلها؟ وكيف أفسّر وجوده في سيّارة على ملكي صحبة اثنين من رجالي؟...

والأخبار من حولي تتسارع، دار بي رأسي، وخيّل إليّ أنّ الضّباب يغطّي ناظريّ. رشفت قهوة مرّة شفت من أثرها احتمالين لا ثالث لهما: إذا استعدنا المسك بزمام الأمور فسوف نغلّف الحادثة بما اعتدنا أن نغلّفها به من تقارير مضروبة بالسّفود. أمّا إذا صحونا على أصوات النّاس يهتفون: "الله ينصر من أصبح!" فسنكون عندئذ أقلّ قيمة من الورق الصحّيّ لدى الحاكمين الجدد.

باريس في ١٢ سبتمبر ٢٠١١

أصوات وأصداء

- ١ -

من الدّروب الوعرة والثّنيّات الشّائكة الموغلة فى جوف غابات الصّنوبر والحور والفلّين، من مهاد النّخل والدّقل والأسل والحلفاء، من الحقول الرّمد فى الأرض اليباب، من شعاف الجبال الرّواسى وبُسط السّهول الخضر والمروج الفيح، من معاقل الرّجال الشّمّ والنّساء الأبيّات، من السّواحل المطلّة على أضواء خُلّبٍ ترسلها الجزر الأوروبيّة القريبة، من سجف البيوت المعتّمة والأزقّة المتربة فى الأحياء الفقيرة، من كلّ رجا من أرجاء البلاد جئنا نكمل عملا كنّا بدأناه.

جئنا نصرخ بالغضب، غضب متّصل لا ينقطع فيه السّابق عن اللاّحق، منذ أن انقذف من الصّدور كحمم البراكين: صدور ما عادت تحتمل الجور والقهر، فإذا أصواتنا تتفجّر فى صرخات فائرة كنّا نطلقها فى الفيافى والقفار، فى الدّساكر والعمار، ترجّعها الأصداء فى عشش العروش البائسة والبيوت الوضيعة التى ما عاد أهلها يجدون ما

يطعمون، وتحملها رياح الوقت كالسّموم إلى المدى البعيد، لتفسد على الحاكمين بأمرهم أسمارا يقرعون خلالها أكؤس الدّم الممتصّ من عروق المساكين.

هل كنّا غرباء والثّورة تجمعنا والصّالح العامّ وحبّ الوطن؟ لم أكن بحاجة إلى ذكر السّمرة والدّم واللّسان، لأقرّ بأنّي لم أر غرباء يعرفون بعضهم بعضا مثلنا، أو لأقل يحسّون بقربهم بعضهم من بعض ليس فى الهموم والمشاغل فقط، ولا فى المطامح والمطارح وحدها.

- هى فوضى؟ ندّ صوت اشرأبّت نحوه الأعناق ومالت الأسماع.

رجل أصلع بدين ذو حاجبين منفوشين فى بذلة كحليّة أنيقة، أطلّ علينا واللّيل يعلن عن قدومه، فى سدله المسترخي، وفى أذان تضخّمه مكبّرات الصّوت بمآذن الجوامع القريبة، جامع القصبة وجامع حمّودة باشا وجامع الزّيتونة... قال ذلك من خلف أعوان أمن بزيّ المعركة الدّاكن، يرابطون أمام هذا المبنى ذى الطّابع المعماريّ القديم الذى كنّا نراه، كالمعالم البعيدة، فى نشرات الأخبار التّلفزيّة، وهو ينقّل نظره فينا كأنّه يخشى هبّتنا.

- نعم، هى فوضى، ردّ أقربنا إليه، شابّ عرفناه من خلال مدوّنته منذ أحداث بنقردان فى أغسطس ٢٠٠٩. فوضى منظّمة، على طريقتنا.

- ولكنّكم بذلك تعطّلون نشاط الحكومة!

- أنتم عطّلتم مسيرة البلاد وعطّلتم شبابها عن العمل منذ ما يقارب ربع قرن.
- إلى متى ستبقون هنا وتمنعون الموظّفين حتّى من الدّخول والخروج؟
- لن نغادر هذا المكان إلاّ بعد تحقيق أهدافنا.
والحقّ أنّ أهدافنا كانت من الكثرة حتّى ليكاد لكلّ واحد منّا هدفه. غير أنّنا كنّا نلتقى فى نقطة: إسقاط الحكومة المنتمية أعضاؤها، إلاّ ما ندر، إلى منظومة الاستبداد. وما ذلك بالأمر اليسير، ليس لتعنّت رجالها فحسب وإنّما أيضا لاستئناسهم بطرق النّظام القديمة، فى الكذب والمراوغة والتّسويف.
ألقى علينا الرّجل نظرة أخيرة، نظرة يائس من تغيير موقفنا، نظرة اشمئزاز إلى من حوّلوا ساحة الحكومة بالقصبة إلى محلّ اعتصام لا يغادرونه إن بليل أو نهار، ثمّ اختفى، فيما انصرف كلّ واحد منّا إلى ركنه، حيث حصر وسجاجيد وجلود خرفان وحشايا من الإسفنج الاصطناعيّ، نفترشها وظهورنا إلى جدران حوّلناها إلى ما يشبه الجرائد الحائطيّة، تتصدّر صفحاتها الشّعارات والمطالب ورسوم الكاريكاتير، وأغطية رثّة نتّقى بها برد اللّيالي، وننتظر نصيبا من الأكل والشّرب لا يبخل به علينا سكّان العاصمة، الأحياء الفقيرة بخاصّة، وكذا حوانيت الأسواق القريبة: البركة والصّاغة والسّرّاجين والقرانة واللّفّة والنّحاس...

لذت بركن قريب من مدخل نهج دار الجلد، وفى البال موّال لصباح فخرى يحضرنى كلّ يوم فى مثل هذه السّاعة: "جاءت معذّبتى فى غيهب الغسق..."، فانتابنى ما ينتاب عاشقا مولّها يرقب طلوع بدره.

- ٢ -

كنت أعرف ما الذى جاء بى فى اليوم الأوّل: التّضامن مع شباب تركوا أهلهم وديارهم وربوعهم، وقدموا فى معظمهم مشيا على الأقدام لتصويب مسار الثّورة وصيانة أهدافها كما يقولون. أمّا فى الأيّام التى تلته، فلا أدرى بالضّبط ما الذى كان يقودنى إلى هذه السّاحة، وقد غدت أشبه برحبة غنم، أو بسوق أسبوعيّة فى حيّ من أحيائنا الشّعبيّة، ترين عليها فوضى، وضجيج لا ينقطع، ومعارك تنشب فى أيّ لحظة لأتفه الأسباب، حتّى لكأنّ الجميع قنابل، قد تنفجر لأوّل احتكاك.

شيء ما كان يدفعنى إلى المجيء، برغم الزّحام، ورغم الهتاف المتواصل، والضّجيج الذى يصدّع الرّأس، والحضور المكشوف لدوريّات الجيش، والحضور الخفيّ للبوليس السّرّيّ، وحتّى لميليشيات التّجمّع فى ما يقال. شيء غامض يعتمل بداخلى كان يدفعنى دفعا إلى هذا المكان، كلّما غابت الشّمس، كأنّ به مغناطيسا يجذبنى إليه، ولا أجد لمقاومته حيلة. شعور ملتبس هو مزيج من التّعاطف واكتشاف

المجهول، التّعاطف مع شبيبة تحدّت الموت من أجل الحرّيّة والكرامة، واكتشاف واقع مُرّ بدأنا نقف على بشاعته وأهواله منذ هروب الرّئيس المخلوع، في ملفّات وسائل الإعلام التى انقلبت فجأة على حاميها وولّي نعمتها، وفي أحاديث الذين انقلبوا بقدرة قادر إلى ثوّار ذوى أفضال وشيم، وكانوا من قبل يشغلون الواجهة صباح مساء بمدائح لا يتقنها سوى المنافقين والانتهازيّين وفاقدى الضّمير، وفي روايات شتّى فاضت بها ألسن المعتصمين، خصوصا أولئك القادمين من المناطق النّائية، تلك التى غفل عنها قطار التّنمية منذ الاستقلال، ولم يعرف أهلها فى العهدين سوى الوعود الكاذبة والمشاريع الوهميّة.

أبصرته وليل مشتهب بارد ينفرش باكرا على هذا المكان، ساحة تلمع فى فضائها مصابيح الشّارع الصّفراء وأضواء بعيدة لسيّارات متطوّعين يفرغون محتوياتها من الأكل والشّرب والأفرشة والأغطية بالتّناوب ثمّ يمضون. كان واقفا وسط حلقة من رفاقه، ولعلّه التقى بهم لأوّل مرّة هنا، دون سابق معرفة، يلقى قصيدا من الشّعر الشّعبيّ:

وينكم سنين الجمر يا سمسارة

سنين القلوب حيارى

سنين قمع بالمتْراك والغدّارة[1]

١– مطلع قصيد بعنوان "رسالة إلى ثوّار ما بعد الثّورة" للشّاعر الشّعبيّ على زمّور. المتراك هى المقمعة، عصا البوليس، والغدّارة هى البندقيّة الصّغيرة.

دوّى الهتاف من حوله ورفعت الشّعارات، ولمّا هدأت، لزم الصّمت برهة يستردّ أنفاسه ويرتّب كلامه، ثمّ رفع يده مقبوضة وقال بصوت أجشّ:

"جئنا نكمل ما بدأناه، لأنّ من يقوم بثورة ولا يكملها يعرّض نفسه للانتقام، كما رأينا فى الأيّام الماضية. جئنا نحقّق بأيدينا، بسواعدنا، بأجسادنا ما ثرنا من أجله. سنأخذ حقّنا باللّين، أو بالقوّة، فإمّا حياة وإمّا ممات!"

وردّد الجمع وراءه: "فإمّا حياة وإمّا ممات!"

تابعته بنظرى وهو لا يزال واقفا يقيس وقع كلامه فينا ويفيض بالمزيد. متين البنية، معتدل القامة، ذو وجه لوّحته الشّمس بسمرة خفيفة تغزوه لحية أيّام معدودات، تجعله يبدو أكبر من سنّه. فى نظرته بشاشة من يفتح صدره لكلّ قادم، وفى صوته الممتلئ نبرة واثقة لا تخطئها الأذن. دنوت أستمع إليه، وفى الصّدر رفيف غامض، أستحلى شِعره وأتحمّس لخطابه، فلمّا تنبّه لوجودى تبسّم. أجبت ابتسامته بابتسامة محتشمة فيها استحسان لما كان يلقيه أمام حضور من شتّى الأعمار، وقد انبرى بعضهم يصوّرونه بالهواتف الجوّالة، وينقلون الأشرطة على حواسيب محمولة ينزّلونها مباشرة على صفحات الفيسبوك، يعلمون من خلالها رفقاءهم فى الأقاصى بما يجدّ فى التّوّ واللّحظة. ومنذ ذلك

اليوم، صار إذا رآني لا يرفع نظره عنّي حتّى أبتسم له وأكلّمه ولو كلمات مقتضبة، وشيئا فشيئا، اعتدنا على ذلك الموعد اليوميّ حتّى خيّل إليّ أنّي كنت آتي من أجله هو.

- ٣ -

لم أدر ما الذى شدّنى إليها. وجهها القمحيّ المدوّر المليح القسمات، الذى تبرز فيه وجنتان تتورّدان عند نزول البرد أوّل المساء، بشرتها الزّيتيّة النّاعمة، شعرها الكستنائيّ المنثور فى شكل خصل مفلفلة، جسدها الذى تفوح منه رائحة خافتة، مزيج من المسك والعنبر والعرق العالق بثنايا البدن. . . أم أشياء أخرى عصيّة على الإدراك؟

فى مساء ذلك اليوم، بعد أن تفرّق الجمع ولاذ كلّ فرد بركنه يزجّى اللّيل بروايات مرعبة عن وحشيّة القتلة الذين جنّدهم النّظام لقمع شعبه، أقبلت نحوى بقامتها الرّشيقة الشّبيهة بقامة فتاة رياضيّة، تشكرنى فى استحياء. قلت: "عمّ؟" قالت: "عن هذا الشّعر الرّائع وهذه الخطبة البليغة." قلت: "إنّما هو استعراض لفظيّ فى متناول كلّ كتبة الإنشاء." شعّت الدّهشة فى عينيها ولم تنطق بكلام، كأنّها لم تصدّق أن يصدر ذلك عمّن جعل نظم الكلام سلاحا يناجز به الخصوم، فشرحت: "هو ضروريّ للتّعبئة، ولكنّه لا يكفى لاقتلاع

أزلام هذا النّظام، المنتشرين فى دواليب الدّولة انتشار خلايا سرطانيّة فى جسد سقيم." سكتُّ أتملّى بهاء خال يعتلى شفتها العليا من جهة اليسار، وصفاء عينيها وقد وسّعتهما الدّهشة، ثمّ قلت: "نحن بحاجة إلى أفكار توحّدنا، تعيد لنا اللّحمة كى نقدر على الصّمود فى وجه مناوئين دهاة عتاة. والفكرة فى هذا الظّرف أهمّ من بلاغتها. انظرى مثلا مفعول لفظة بسيطة كـ"Dégage!". لقد اجتازت الحدود وصارت فى ما وراء البحار ماركة مسجّلة، ههههه، على ملك مبتكرها، أى الشّعب التّونسيّ، ههههه!" جارتنى فى ضحكى مجامَلةً وهى تهزّ رأسها كالموافقة، ثمّ عبرت عينيها لمعة خاطفة وقالت: "وهل تخافون الأذناب وقد قطعتم الرّأس؟" فرطت منّى ضحكة خافتة قلت على أثرها: "الخوف ليس ممّن أشهر عداءه للشّعب وثورته، فهو معروف ونحن له بالمرصاد، وإنّما من أولئك الذين يزعقون صباح مساء، يُعلون أصواتهم على أصوات الشّباب الثّائر يوهمون بثوريّتهم، وما هم فى الواقع سوى سفهاء. صدّقيني، أغلب من يتصدّر المشهد اليوم لا يفكّر إلاّ فى مصلحته الخاصّة. كلّهم يريدون ركوب الثّورة وإخضاعها لرغباتهم المكبوتة. بعضهم يرغب فى الزّواج منها عرفيّا، وبعضهم يريد زواج المتعة، والبعض الآخر يفضّل اغتصابها فى الخفاء، بغير شهود." هذه المرّة لم تستطع أن تكتم ضحكتها. ضحكت بدورى فى قهقهة

عالية جلبت نحونا الأنظار، وسرعان ما تحلّق حولنا شبّان آخرون وراحوا يتجادلون وعيونهم مصوّبة نحونا يحاولون تشريكنا فى جدلهم. تلفّتت حولها كأنّها أحسّت بالضّيق، ثمّ نظرت إلى ساعتها، سوّت كوفيّتها الفلسطينيّة التى تلفّع جيدها، وودّعتنى معتذرة. مددت عنقى وسط الزّحام أتابع ابتعادها خفيفة الخطو إلى أن توارت فى منعطف نهج دار الجلد.

وفى سحر اللّحظة التى جمعتنا على غير موعد، نسيت أن أسألها عن اسمها وعن إمكانيّة حضورها هنا مرّة أخرى. لذلك غمرنى نوع من الفرح الهادئ الرّصين الذى يرفرف فى الأعماق ولا يفصح عن نفسه بأكثر من لمعة فى العيون أو طيف ابتسامة وانية، حين أبصرتها مقبلة فى اليوم التّالي، تشقّ الصّفوف لتجيئنى بأكلة من صنع يدها: "بوليس مكتّف"، ومعها قنّينة ماء معدنيّ وعلبة زبادى وقطعة مرطّبات "وذنين القاضي". عرضتها عليّ، فلم أملك نفسى من الضّحك. سألتها مازحا: "هل هى مجرّد صدفة؟" فردّت فى ابتسامتها الحييّة وهى تعيد خصلة نافرة إلى موضعها من النّاصية: "قلتِ أساعدكم على تطهير الدّاخليّة والقضاء، هِهِه!"

استراحت لى فقلت أغتنم الفرصة: "اسمى فارس، جلال فارس." اكتفت بأن قالت: "جليلة." وسكتت تدير خواطرها فى صدرها، لعلّها

كانت توازن لحظتها بين الإفصاح عن لقبها أو التّكتّم عليه، ثمّ أشارت إلى الأكل وقالت تغيّر مجرى الحديث: "كل. سيبرد." قلت: "لسنا بحاجة إلى الأكل، فقد تعوّدنا على شظف العيش. نحن بحاجة إلى من يشدّ أزرنا، يسندنا ولا يخذلنا، لكي نكون سراجا يبدّد الظّلام." قالت وهي تلحّ عليّ أن آكل: "حتّى السّراج يحتاج إلى زيت، زيت صاف كي يبدّد سجف الظّلام."

- ٤ -

جئت فى الصّباح، فى التّاسعة تحديدا، على غير عادتي. استقبلنى المكان بفظاظة فادحة. السّاحة أشبه بمصبّ نفايات تناثرت أكياسه. فضاؤها ترين عليه روائح خانقة تثير المعاطس وتصيب العيون منها حرقة وأكال. أرضيّتها الرّخاميّة قذرة فى سواد بلاطة حانوت فحّام، تتناثر فيها ظروف خراطيش وعصيّ مكسّرة، وقوارير مهشّمة، وأوراق مدعوكة، ونثار حجارة وحصى. على أديمها عمّال البلديّة بأزيائهم الخضراء يروحون ويجيئون وهم يحجبون أفواههم وأنوفهم بمناديل كعادة رعاة البقر وقت العجاج، بعضهم يكدّسون الخيام واللّحف والأغطية والفرش، يجمعونها قرب مدخل باب البنات، قبل وضعها فى شاحنة رابضة. وبعضهم يكنسون الأرض ويرشّونها بخراطيم الماء، فيما جنود واقفون قرب مدرّعة يمنعون النّاس من المرور. وفى الخلفيّة، أمام جامع القصبة، أعوان أمن يتهارشون مع حفنة من الشّبّان فى عمليّات كرّ وفرّ لا تنتهي.

سألت أحد أعوان البلدية: "ماذا جرى؟" فلم يردّ. سألت زميلا

له، فمال برأسه ناحيتى يولينى سمعه ليتبيّن سؤالي. قلت: "أين المعتصمون؟" أزاح لثامه فبدا وجهه كالحا ذا خدّين غائرين. مصمص فمه، تفل جانبا، مسح نثار بصاقه بكفّه وقال: "الله يعصّمهم!" وبصق بصقة أخرى وأضاف فى سخرية: "عَصْمة[1] بلدي، كرموس وهندي! ههههه، ذلك ما يلزمهم." قلت: "لماذا؟" وقد فهمت تلاعبه بالألفاظ. أجاب فى دهش وهو يستأنف الكنس: "ألم يأتك خبرهم؟" قلت: "لا." قال: "البوليس ضبطهم متلبّسين." قلت وقد عاودنى لحظتها ما حكته لى أمّى نقلا عن الرّاديو: "متلبّسين! متلبّسين بماذا؟" توقّف عن الكنس وقال فى ما يشبه الاستنكار: "بجرمهم طبعا. انظري! انظرى ما تركوه! وهذه الرّائحة – قال ذلك وجعل يحرّك أنفه ويتشمّم – ألا تشّمين شيئا؟" ثمّ ضرب كفّا بكفّ وأردف فى استنكاف: "اللهمّ احفظنا! هه، ثوّار قال. تفوه!"

خطر ببالى لحظتها ما كان يخشاه جلال فارس حين أزوره فى المساء أنقل له السّلوى أكثر ممّا أحمل الحلوى: "لديّ قناعة بأنّهم لن يدّخروا جهدا للإساءة إلينا وتشويه سمعتنا. سيقولون عنّا شرذمة أوباش، ومنحرفين، ومخرّبين، ومفسدين... إلى آخر نوبة "المالوف". ذلك

---

١ – العَصمة أو القَبض فى العامية التونسية هى ضد الإسهال، والمعصوم هو ممسوك الأمعاء.

طبعهم الذى جبلوا عليه من عهد الهارب، وما بالطّبع لا يتغيّر." وما كان يظنّ أنّ الصّفاقة ستصل بهم إلى حدّ اتّهام شبّان تكبّدوا الارتحال والجوع والعطش دفاعا عن قيم الحقّ والعدل والحرّيّة والكرامة بكونهم يقترفون أعمالا مشينة، لا يصدّق عاقل أنّها يمكن أن تحدث على بعد أمتار من قصر الحكومة، ومن بيت من بيوت الله.

هذا الصّباح، ونحن نشرب قهوتنا، رجتنى أمّى ألاّ أعود إلى القصبة. قالت، إذ لمحت استغرابي، إنّ الأفّاقين حوّلوها إلى وكر دعارة. اعترضت: "من حكى لك هذه الحكاية السّخيفة؟" قالت: "الرّاديو. منذ حين سمعت ضابطا فى الدّاخليّة يقول إنّ أعوانه ضبطوا كمّيات كبيرة من قوارير الخمر وعلب البيرة ولوحات الزّطلة وحبوب الهلوسة. وحتّى... العزاء... ماذا يسمّونها؟ تلك الواقيات من الحمل والأمراض المعدية..." سألت فى ذعر: "والمعتصمون، ماذا كان مصيرهم؟" قالت: "حسبما فهمت، هم فى حالة إيقاف." لم أكمل قهوتي. خرجت أجرى كالمجنونة، وأمنّى النّفس بأنّه خبر غير صحيح كأغلب الأخبار التى تتداول بعد الثّورة، فإذا الواقع ماثل أمامى بعنفه وبشاعته، ودناءة من يقف خلفه.

نظرت إلى ناحية محدّدة من السّاحة، حيث اعتاد جلال فارس الوقوف. تمثّل لى وهو يلقى قصيدته الحماسيّة:

وينكم سنين الغمّة
سنين شعبنا مذبوح سايح دمّه
سنين صادروا حتى النّفس والكلمة
وما خصّ كان يوظفوا جزّارة
أنا ريتكم يشهد عليّ حمّة
جرذان وسط جحورها تتوارى
فيشرب سامعوه كلامه وينقلونه بعضهم عن بعض.

عندما غادرت المكان مكدّرة النّظرة مكسورة الخاطر، كان صوته لا يزال يرنّ في مسمعي: "نحن الأصوات وأنتم الأصداء ترجّعونها داخل البلاد وخارجها، لكي نحاصر فلول الطّغيان ونقطع دابرها، فلا تخذلونا. رجاء، لا تخذلونا."

- ٥ -

ليلة مروّعة أسفرت عن صبح جاهم. ليلة أعادتنا إلى ليال خوال خلنا أنّنا تركناها بغير رجعة، ليالى الرّعب التى رأينا فيها الموت راصدا لنا فى الأزقّة والمنعطفات، ومسلّحين فوق سطوح المبانى يحتفون بموسم للصّيد والقنص ليس كمثله موسم صيد الخنازير البرّيّة.

سهرنا كالعادة فى بؤر ضيّقة يحاذى بعضها البعض، نتدثّر بالأغطية فوق ثيابنا وبأخبية من الباش فوق رؤوسنا اتّقاء البرد، ونجدل فى أعماق اللّيل جدلا لم يبق منه التّعب ونداوة الفجر والنّوم الزّاحف غير همهمة خافتة. وبين الصّحو والمنام، تناهى إلى سمعنا وقع أقدام يتّسع ويقترب، وسرعان ما تحوّل إلى ركض مشفوع بلغط، وقبل أن نفيق من ذهول الحلم دوّت طلقة ناريّة عقبها دخان خانق عرفناه. وفيما نحن ننتفض واقفين، ونهرع فى اضطراب ووجل لا ندرى أيّ طريق ينجينا، انهمرت علينا القنابل المسيلة للدّموع من كلّ جانب، وتعالى وسط غمام الدّخان الكاتم للأنفاس الصّراخ والزّعيق والشّتائم السّمجة والكفر، ثمّ اندفع نحونا رجال بأزياء سود يحجبون وجوههم

المرعبة بأكمّة ذات فوهات أسطوانيّة، كأنّهم يخوضون حربا كيماويّة، وانهالوا على أجسادنا ضربا بالعصيّ، وركلا بالجزم الثّقيلة، وسحلا من الثّياب وحتّى من الرّقاب والشّعور.

عندما طلع النّهار، تجمّعنا قدّام قصر العدالة، نلملم جروحنا، ونتفقّد صفوفنا مثل عساكر يحصون ما تكبّدوا من خسائر قبل استئناف المعركة، لأنّنا وجدنا أنفسنا فى أتون معركة فرضت علينا وليس من خوضها مفرّ، خصوصا بعد أن سمعنا ما روّجه عنّا أيتام الهارب وأبواق دعايته من آثام.

قلت للرّفاق أو ما تبقّى منهم فى حالة سراح: "لقد صرنا فى العرب مثلة وأحدوثة، إذ أصابنا التجمّعيون، ومن قبلهم الدّساترة، فى دمنا ومالنا وعرضنا، فسعينا وراءهم نسألهم أن يمنّوا علينا بالعدل، والمساواة، والحرّية، والكرامة... وهو لعمرى خطأ رهيب. ما نريده هو إسقاط النّظام، وهذا لا يوهب، بل ينتزع بالقوّة. أجل، بالقوّة، فإمّا حياة وإمّا ممات!" ساد الصّمت وقد بدا أنّ شبح اللّيلة الماضية لا يزال يلقى بظلاله علينا. قلت: "ليس لنا فى مواجهة الموت سوى أجسادنا، ولكن تذكّروا دائما أنّنا نكتب التّاريخ." علّق أحدهم: "أما قلت إنّ الفكرة وحدها ستهزّ قناعاتهم وتبثّ فى صفوفهم الخوف؟" قلت أثبّت جنانه: "هم يخافون من الفكرة، ولكنّ خوفهم من الفعل أكبر."

لمست التّردّد فى نظراتهم فقلت: "أنا راجع"، "إلى أين؟" سألنى رفيق ثانٍ. "إلى القصبة، قلت. فمن شاء منكم فليتبعني، ومن شاء فليعد من حيث أتى."

قلت ذلك وفى البال وجهها القمحيّ المدوّر، وبسمتها الصّافية التى تنفذ إلى القلب بغير استئذان. تمثّلت لى وهى واقفة تنتظر قدومي، وقد سبقتنى إلى السّاحة، هناك حيث اعتدنا أن نلتقي، نرتّب زمنا لا يزال فى أوّله، زمنا لا يُعرف فيه المرء بلباسه، بل بجوهره، ووفائه لهذه الأرض الطّيّبة.

قلت فى سرّى وقد قرّ قراري: "سأرابط أمام قصر الحكومة، أشنّها حربا على بقايا منظومة الاستبداد، ولو وحيدا، دونما سند."

لقد قطعت عهدا على نفسى فى حضرتها، ولست ممّن يخلفون العهد.

باريس فى ١٩ سبتمبر ٢٠١١

مداخل الرّعب

مدخل أوّل:

أفاق معروف اللاّوى مرتعبا على قرقعة عالية مشفوعة بصخب وضجيج كأنّ قطيعا من الثّيران اقتحم بيته. أصوات أوانٍ تتكسّر، قطع أثاث تلقى على الأرض، زمجرات غامضة تعلو وتنخفض كصهيل خيول أجفلها خطر داهم، أضواء كشّاف موتور تكاد لا تستقرّ حيثما انحطّت. للحظة خيّل إليه أنّه لم يتخلّص من الكابوس الذى لبسه. فرك عينيه فى الظّلمة مرّة واثنتين، وفى الأطراف ارتجاف وفى الصّدر خفق شديد، فإذا رجال ملثّمون يخرجونه من نومه بالقوّة، ويسحبونه من فراشه فى غلظة وعنف، ويسحلونه كما تسحل الخيش وهم ينفثون فى وجهه المذهول عبارات الفحش والسّماجة.

عندما أخرجوه من بيته فى بيجامة مصفّد المعصمين عرف من هم فازداد خوفه. أيّ جرم أتى وهو عازف عن كلّ ما يجرى من حوله. المظاهرات، الجدل فى المقاهى والإدارة، التّحريض والتّنديد على

الفيسبوك فى أندية الإنترنت... كلّها بعيدة عنه. كان يغلى وحده، بينه وبين نفسه، فى بيته العبوس البائس الذى لا يستقبل فيه غير صديقة تزوره، كالهلال، مرّة فى الشّهر، لا يسرّ لأحد باستيائه من وضعه وسخطه على الحكومة وسياستها ونقمته على الحزب الحاكم، فلماذا إذن يقع إيقافه، بهذه الطّريقة، فى عزّ اللّيل، من قبل أعوان أمن ملثّمين، مدجّجين بالأسلحة كأنّهم يواجهون خليّة من خلايا القاعدة؟ على ضوء المصابيح الكابية رآهم فى جزم ثقيلة تقرع الإسفلت، وأزياء سود داكنة تعلوها خوذ خاصّة تغطّى الرأس والوجه ولا تبين منها إلاّ العيون، يقودونه إلى شاحنة خفيفة راسية أمام بيته. عندما حشروه فى جوفها ألقى نظرة سريعة وراءه، فهاله الباب المكسور والبيت الذى سيصبح عرضة لكلّ عابر، وربّما وكرا للدّعارة والخمر والمخدّرات. فكّر فى موجوداته التى قد تُطمع النّاس فيها، فلم يلح له غير كتب نفيسة كان اشتراها من نهج الدّبّاغين ورسائل من صديق مهاجر طالت غربته. حزّ فى نفسه كثيرا أن تهمل كتبه. خشى عليها من الضّياع والتّلف والبلى، وأخشى ما خشيه أن يجهل غاصبو محلّه قيمة تلك الكتب فيضرموا فيها النّار للشّيّ أو التّدفّؤ.

والسّيّارة تشقّ المدينة الهاجعة، الخالية إلاّ من دوريات أمن وفرق حراسة تنضح من نظرات أعوانها شهوة الدّم، ومدرّعات للجيش رابضة فى

أماكن محدّدة لا تتخطّاها، عاد يتساءل عن سبب إيقافه، يغوص فى تلافيف ذاكرة لم تغادر بعد غمامها وخدرها يبحث عن خطيئة اقترفها بغير علم، أو قول ناب فرط فى غفلة منه، فأثار حفيظة السّلطة. ولم يلح له، برغم الجهد، ما يسوّغ إيقافه.

وبعد طول انتظار فى قسم من أقسام البوليس، ولعلّه مكتب بثكنة، لا يدري، جاء من يسأله بغلظة:

- ما علاقتك بعزيزة نالوت؟

مدخل ثانٍ:

لم أكن أعرف لها وجها ولا اسما قبل ذلك المساء.

طرقت بابى واللّيل يوشك أن يرخى سدوله، وجعلت تتوسّل إليّ بكتاب الله، وعلمه الذى زرعه فى صدري، وإيمانه الذى أودعه فى قلبي... وأدعية أخرى ما عدت أذكرها، فنزلت عند طلبها وأنا لا أتوقّع أن يلحقنى من ذلك المطلب أذى. من كان يتصوّر أن رسالة بسيطة سوف تفتح عليّ أبواب الجحيم! من كان يتصوّر، يا عباد الله، أنّ مجرّد رسالة ستجرّ عليّ نيرانا تكوى وتلهب وتسلخ الجلد! إن هى إلاّ بضع كلمات أملتها عليّ امرأة تائهة حائرة تسأل فى لهفة عن مآل زوجها السّجين الذى انقطعت عنها أخباره، لأخطّها على ورق عاديّ، فى صياغة واضحة، بخطّ مقروء يهب نفسه بسهولة. ذلك كلّ ما فى الأمر. فأين المشكلة؟

صحيح أنّها امرأة شابّة، فى عمر لا يتجاوز الخامسة والعشرين فى تقديري، تنضح منها ريح مسك خفيفة ممزوجة برائحة عرق ابترد على لحمها. وصحيح أيضا أنّ ملامحها مرسومة بدقّة، فيها ملاحة وفيها كآبة تتبدّى فى الرّأس المنكّس والنّظرة المطفأة والصّوت الباكى بغير دمع وهى تتمتم من بين أسنانها فى احتشام. نعم، قد تكون جميلة، فى تقديري، ولكنّ الشّيطان ساعتها لم يكن ثالثنا. أنا واثق.

لم أسألها عن اسمها ولا عن سبب اعتقال زوجها، بل فسحت لها المجال كى تقول ما تريد قوله. جلست أمامى فبدت فى حجابها البنّيّ الغامق كإيقونة بتول تحيط بوجهها هالة. أغضيت بصرى إذ لمست اضطرابها وارتجاف أناملها الرّقيقة وهى تدارى حرجها وتستجمع رباطة جأش تمنّعت عليها، لعلّنى أشجّعها على الكشف عن حاجتها، فإذا هى تتبسّط فى الحديث، وإذا الكلام ينساب من فمها فى دفعات متواترة، ينهمر حينا كالمطر فى زوبعة رعديّة، ويقتر حينا آخر خجولا كالنّثيث، كقطر النّدى.

وإذ أنهت كلامها شرعت فى كتابة الرّسالة. بدأتُ بالبسملة، ثمّ حرّرت ديباجة موجزة أسلمتنى إلى الموضوع الذى جاءت المرأة من أجله، وختمت بكلام من عندي، مشاعر دافئة لا أشكّ لحظة إلاّ أنّها خامرت تلك المسكينة القابعة فى وحدة باردة، تودّ أن تبثّها فيمنعها

الحياء وهذا الغريب الذى لا تريده أن يعلم من أسرارها أكثر مّما منحته. كانت تريد أن تعرف فى أيّ سجن نُقل زوجها لكى تزوره وتحمل إليه القفّة، وتطمئنه على سلامتها فى غيابه، وتتمنّى له الفرج بعد هذه الشّدة التى طالت أكثر ممّا يلزم. ذلك كلّ ما فى الأمر.

أمّا لماذا قصدتنى أنا بالذّات، فلعلّ ذلك راجع إلى سمعتى فى الحيّ، وقد اعتاد النّاس رجالا ونساء، أن يستعينوا بى فى تحرير الرّسائل وتعمير الوثائق والرّدّ على ما يرد عليهم. ربّما... أنا لا أرى تفسيرا آخر.

مدخل ثالث:

الجيران يقولون العكس. هم يؤكّدون أنّك على علاقة خنائيّة بتلك المرأة، المدعوّة عزيزة نالوت، وأنّها اعتادت منذ اختفاء زوجها أن تزورك كلّما جنّ الظّلام، للوقوف إلى جانبها فى الظّاهر، وأنت الذى تربطه بالزّوج صلات عقائديّة فضلا عن الجيرة، والحقيقة أنّك تختلى بها لممارسة الرّذيلة. امرأة فى ربيع العمر لم تعد تجد من يشبع رغائبها المكبوتة، هى طعم سهل لأعزب مثلك يفاضل شهوة الفرج على احترام حسن الجوار وتعاليم العقيدة. لا تنكر علاقتك الدّنسة، فلنا على اقترافكما جريمة الزّنا قرائن وشهود، مثلما نملك وثيقة لا تقبل الدّحض عن انتمائك إلى الجماعة السّلفيّة، وثيقة بخطّ يدك تتصدّرها "بسم الله الرّحمن الرّحيم" بالخطّ الثّلث. لا تضيّع وقتنا فى ما لا ينفع.

المرأة اعترفت بما نُسب إليها من أفعال لا تمتّ إلى أخلاقنا بصلة، بعد الفحوص الطّبيّة الدّقيقة، وهي الآن رهن الإيقاف، ويهمّنا أن نسجّل اعترافك قبل أن ننقل القضيّة أمام القضاء، وإلاّ فسوف نتولّى أمرك بأنفسنا. لا شكّ أنّك تعرف، بالسّماع على الأقلّ، ماذا يمكن أن نفعل بالمظنون فيهم.

هيّا احك ولا تضيّع وقتنا... نريد أن نعرف علاقتك بعزيزة نالوت وبزوجها أيّوب الصّالحي.

مدخل رابع:

في وقت تناكرت فيه الوجوه وخفت الضّوء والضّجيج ولم يبق غير زفيف بعيد لسيّارات وشاحنات لا تزال تستوفي يومها، جاءت تسير في بطء تتعثّر بأذيال ثوبها، وتمسح عينيها بطرف خمارها البنّيّ الذي أسدلته على وجهها تخفي تحته عبراتها. تردّدت كثيرا في المجيء، وتردّدت أكثر في دخول بيت رجل غريب يعيش وحده، ولكن لم يلح لها حلّ آخر. طرقت باب معروف اللاّوي وظلّت تنتظر. قيل لها إنّه ليس أحسن من يكتب الرّسائل في الحيّ، ولكنّ له بركة، "يديه تجمّد الماء" كما يقال، ما قصده شخص يواجه ضائقة أو مشكلة لكي يحرّر له جوابا إلى من يهمّه الأمر إلاّ وفتح الله في وجهه، وحلّ كربته، وأفرج شدّته، ورزقه بعد ذلك من حيث لا يدري.

فُتح الباب على وجه شابّ يفوق عمرها بسنوات قليلة. قدّرت أنّه أصغر من زوجها، ولكنّه أصلب منه عودا وأبهى قسمات برغم لباسه المشوّش وشعره الأشعث وذقنه غير المحلوق. تقدّمت نحوه خطوتين وهى تعضّ على شفتها كالنّادمة، فلمّا صارت إلى جواره وقفت صامتة تنظر إليه لحظة، ثمّ غلبتها العبرة فجعلت تنشج، ووضعت كفّيها على عينيها.

دعاها إلى الجلوس وقد عرف مقصدها، فاضطربت ثمّ استجابت. حدّثته، والعين منها دامعة، عن زوجها وعمّا يعانيه فى حبسه، وعن الحواجز التى صار السّجّانون يضعونها فى طريقها كى يمنعوها من زيارته، قبل أن يقرّروا نقله إلى وجهة غير معلومة، رفضوا أن يفصحوا عنها برغم طول إلحاحها وفيض بكائها.

تناولت منه الرّسالة ولسانها لا يكفّ عن الشّكر والدّعاء، وما كادت تغادر بيته حتّى صادفتها حليمة زوجة الصّحبى بوفرعون رئيس الشّعبة:

– ماذا كنت تفعلين فى بيت رجل سيّئ السّمعة يا عزيزة؟

مدخل خامس:

امض على الورقة، امض يا ابني. لا تركب رأسك فتندم. اسمع كلامي. هؤلاء زبانية لا تدخل الرّحمة قلوبهم. أنا أعرفهم، وأعرف

ما يقدرون عليه من فظائع لا يتصوّرها العقل. امض فتريح وتستريح. الصّمود أمامهم فوق طاقة البشر، ومن حاول قبلك أخفق وسرعان ما أبدى النّدم وصار يلثم القدم عسى أن يرفعوا أيديهم عن تعذيبه. كلّهم كانوا أصلب من الصّخر، ثمّ تهاووا إلى الحطام أو دونه. واحد فقط صمد حتّى النّهاية صمودا أوغر صدور جلاّديه، فأمعنوا في تعذيبه تعذيبا تفنّنوا في تنويع أساليبه، كأنّهم يخوضون امتحانا في ابتكار وسائل حديثة. لم يكن قويّ البنية، مفتول العضل كما تتصوّر. بالعكس، هو رجل ناشف العود، معتدل القامة، محنيّ الهامة قليلا ... غير أنّه كان أبيّ النّفس قويّ الإرادة، وجسده مثل خشب عتّقته أعوام طويلة من المطر والشّمس والرّيح والأتربة، فما عاد يؤلمه أيّ شيء. لا الجلد ولا الحرق ولا حتّى الشّرط بالأسلاك ذات الأطراف المسنونة. ورغم ذلك اهتدوا إلى نقطة ضعفه، وتلك عبقريّتهم، عندئذ سهل عليهم قهره. قبلها، لم يفلحوا البتّة. لكم سحلوا جسده على أرضيّة مفروشة بالرطوبة والقذارة، منثورة بالقزاز، مزّقوا لحمه بشفرات الحلاقة ورشّوا على جروحه الملح ثمّ حشوها بالثّوم، عزلوه في زنزانة ضيّقة كالقبر لا يغادرها حتّى لقضاء حاجته، أرغموه على شرب بوله وأكل برازه قبل أن يعتدوا على شرفه... ولم يضعف ولم ينحن. كان صبره كصبر من سمّاه أبواه باسمه. وفي فجر يوم لئيم، جاء من يسرّ إليه أنّ امرأته رهن

الإيقاف. رجل مقتّر من أخلاط كثيرة قال لهم: دعوه لي، أنا أعرف كيف أكسر شوكته. ومضى يخبر السّجين بأنّ زوجته ضُبطت في حالة تلبّس، وأنّها اعترفت وذكرت بالاسم والصّفات عشيقها وعنوانه. ثمّ جاؤوا بها هي كي تعترف أمام زوجها بما نُسب إليها. صُعق الرّجل وتبدّل وجهه ألوانا، ثمّ عبر جسده ارتجاف كرعدة الحمّى وهوى على الأرض مغشيّا عليه. ومنذ ذلك اليوم كُسرت إرادته وصار عجينة يعركها جلاّدوه على هواهم، وهو لا يدري أنّ المسكينة أجبرت على ارتضاء تهمة ليست منها لإنقاذه من الموت. نعم. علمتُ في ما بعد أنّ أبالسة "العهد الجديد" كانوا قد خيّروها بين أن تعترف بخطيئة مزعومة أو تترك زوجها يواجه حكما بالإعدام عن جرائم كانت تعرف أنّه لم يرتكبها. أوهموها بأنّ حياة زوجها، أيّوب المنصوري، معلّقة في كلمة منها هي...

مدخل سادس:

لن أساعدك في أكل لحم تلك المسكينة نيئا ولو قطّعتني كما يقطّع حشو العصبان. للإنسان كرامة حتّى في أحلك الظّروف، فما البال وشمس الحرّيّة تطلّ من كوى هذه الزّنزانة، تنشر أشعّتها الذّهبيّة عبر دهاليز الظّلام تملؤني عزما وتملؤك رهبة. لن أزيد على نكال ذلك الزّوج المغدور ما يؤوده حمله. حسبه من عاني. لا، لا، اطمئنّ! لن أستجديك كي

تكفّ عن تخذيع لحمي، بل سأنصحك بالتطلّع حولك، لعلّك تدرك أنّ الحال غير ما كانت عليه. نحن الآن فى نهاية الوقت الإضافي، أو الوقت البديل، أو الوقت بدل الضّائع كما يقول المعلّقون الرّياضيّون، وسنمرّ حتما إلى ركلات التّرجيح، وهى لو تعلم امتحان، يُكرم فيه المرء أو يُهان، كما كان معلّمى يقول. من وقف الحظّ فى صفّه نال ما يتمنّى، أمّا من أدار له ظهره فقد خسر ما بين يديه وما خلفه، ولن يجد حينئذ عينا تبكيه ولا ملاذا يؤويه ولا صدرا يحضنه. لا، لست أهدّدك، وهل أملك القدرة على تهديدك وأنا مصلوب أو معلّق أو مسحول أو ملقى فى ركن بارد بزنزانة لا يدخلها الضّوء بتاتا! لا، إنّما أذكّرك لتعلم أنّك إن كنت استحليت تحكيما مواليا يغضّ البصر عن أخطائك، ويجبر وقت الحاجة عثراتك، ويمنحك عند الضّيق مساندة مفضوحة كى تسجّل فوزا تعلم علم اليقين أنّه غير مستحقّ، فإنّ ما تمور به البلاد اليوم من فورة حامية وقودها أصحاب السّوء والفساد لن يفقدك حظوتك لدى أسيادك فحسب، بل سيرديك ويرديهم إلى قيعة ليس تحتها غير العدم. أعرف أنّك تستطيع الآن قتلي، وأنا معلّق كالدّجاجة المصليّة أتلقّى جلدك ووخز أسياخك، ولكنّك لن تفرح بانتصارك. سيأتى من يخرجك من هذا السّرداب ليعرضك على المتظاهرين فى قفص منيع كما تعرض الوحوش والغيلان، كى يتأمّلوا عن قرب نموذجا من هؤلاء

الذين أذاقونا الهَوْن والويل، واستعذبوا تفتيت لحمنا وتمزيق عروقنا، وأقاموا الولائم احتفاء بموتنا البطيء، يشربون من كأسهم جرعة كلّما نزفت من دمائنا قطرة. افتح عينيك وانشر سمعك! ألا تسمع هدير الشّارع؟ ألا تسمع غضب الشّعب؟ ألا تتبيّن فرحة النّاس وهم يتنفّسون الحرّيّة؟ انتهى عهدكم البائس فاتركوا أرضنا وسماءنا وهواءنا وغوصوا فى القيعان المظلمة جنب الدّيدان تأكلونها وتأكلكم حتّى الانقراض، فلا حاجة لنا بكم ولا بنسل قد يأتى من أصلابكم، لأنّكم لن تنجبوا غير بذور الشّرّ. اضرب، لن أسكت... مزّق جلدي، لن أسكت... فلن ترهبنى بعد اليوم. بالعكس، صمودى الآن يرهبك، يزرع فى نفسك اللّئيمة بذور الرّيبة، ثمّ يفشو الرّعب فى أعماقك يهدّ منك كلّ قائم.

لن أمضي، قلت لك. وثيقة اعترافى المزعومة... ستكون دليل إدانتك... عذّب... عذّب كيفما... كيفما شئت، فلن تفلت... لن تفلت من الحساب... والعقاب. هذا... هذا وعد.

باريس فى ٢٧ سبتمبر ٢٠١١

المطارَدة

هذا الصباح، وأنا أفتح الباب، فوجئت فى الفرجة المواربة برأس بلا جثّة. الوجه فى بياض الشّمع، والشّعر قصير ملبّد، أبيض هو الأخر كأنّه شعر عجوز، والحال أنّ القسمات تنبئ عن عمر أقلّ من ذلك بكثير. وجه شابّ، ربّما. أنا لست متأكّدا لأنّه لاح فى ومض خاطف واختفى بسرعة، وبقيت صورته تجول فى خيالي. العينان مسبلتان، الفم مغلق، والرّأس ساكن لا يتحرّك، سائب لا شيء تحته، كأنّه معلّق فى الهواء. ارتددت وفى القلب خبطة قويّة مباغتة وقف لها شعر رأسي، وأغلقت الباب دونه. بقيت برهة ساهما واجما أمرّ بلسانى على شفتيّ أبلّ جفافهما، ثمّ تمالكت. قدّرت أنّى واهم، ما رأيت غير أضغاث ولّدها الخوف والسّهر وضرام الأيّام التى لا يقرّ لنا فيها قرار، نرهف السّمع لأوامر ما فتئت تتغيّر وتتناقض. قيل لنا أنتم حماة الدّيار، فلا تأخذنّكم بالمارقين رحمة. ثمّ نتأ من صفوفنا من ينتقد صنيعنا

همسا في الزّوايا المعتّمة، ويعدّه من قبيل العبث وزرع الفوضى، فيما اعتبره آخرون ضربا في حديد بارد، وزعموا أنّنا نرمي حيث لا يلزم. استجمعت شجاعتي، فتحت الباب وخرجت أقلّب النّظر من حولي متحفّزا، متأهّبا لأيّ طارئ، أتلفّت يمنة ويسرة حذر المباغتة، فلم يلح لي في الشّارع ما يريب. أناس تروح وتغدو لقضاء شؤونها قبل حظر التّجوّل. شباب يرفع شعارات مناهضة للنّظام ويجمّع صفوفه لمسيرة تنادي بالحرّيّة والدّيمقراطيّة وباقي الكلام الفارغ الذي شبعنا منه، وأصداء ضجيج تترامى في نواحي المدينة، تحت سماء مكفهرّة تنذر غيومها بالمطر وتنبئ ريحها الغربيّة بقدوم البرد القارس.

أدركت الثّكنة بغير مشقّة، ولكن ما كدت أفتح دولابي المعدنيّ لآخذ عدّتي حتّى شهقت وتواثبت أمعائي. في الرّف الأعلى ينام رأس هو الرّأس الذي تبدّى لي منذ حين، دون بياض هذه المرّة، فالشّعر داكن، والوجه في نضارة وجوه الأحياء كأنّه لم يفارق الحياة. هذا بالرّغم من كونه رأسا مقطوعا يلوح في قاعدته عند مستوى الرّقبة دم متخثّر. فتح عينيه فجأة فترامقنا ثوانيَ بطول الدّهر، وكنّا وجها لوجه، طرفت رموشه خلالها مرّة أو اثنتين وربّما أكثر كانت كافية لتجميد الدّم في عروقي. خيّل إليّ لحظتها أنّني أرى وجهي في المرآة. لكأنّ الرّأس رأسي والوجه وجهي بملامحي وصفاتي. لم أحتمل نظرته التي بدت لي

حادّة، فصفقت باب الدّولاب بعنف، وتراجعت إلى الوراء مأخوذا، وبى رجفة تخضّنى من رأسى إلى قدميّ.

- ما بك يا منصور يا زاهي؟ سألنى زميل لى جاء للأمر نفسه، وهو يتطلّع إليّ بعيون دهشة.

- أووه... باب الخزانة، قلت. آآ... استعصى عليّ فتحه.

سحب الباب فطاوعه بسهولة زرعت بذرة الشّكّ فى صدره. تجاهلت ظنّه بي، ومددت عنقى فى تؤدة ورهبة، فلم أر إلاّ ما اعتدت أن أرى فى الخزانة. الزّيّ القتاليّ الأسود، الحزمة الثّقيلة، القناع، الصّدار الواقى من الرّصاص.

- ما بالك وجهك أصفر؟ قال.

- تعبان، قلت وأنا أعاود النّظر إلى جوف الدّولاب، كأنّى أخشى أن يكون الرّأس لا يزال مختبئا داخلها.

تردّدت قبل أن أمدّ يدى وأسحب عدّتي. ارتديت زيّى على عجل، واتّجهت إلى مستودع الأسلحة لأتسلّم رشّاشى وذخيرتي، وأنا أحاول أن أدارى اضطرابى وأطرد صورة ذلك الوجه الغريب، وأقنع نفسى بأنّ ما رأيته محض أوهام.

فى ظهر ذلك اليوم، تخيّرت موقعا استراتيجيّا فوق سطح أحد المباني، يسيطر على الشّارع وما يمور فى أرصفته من حركة لا تهدأ. وفيما أنا

أصوّب سلاحي نحو جمع غاضب من الشّباب الفائر، شعّ في عينيّ وميض متواتر، حسبته من أثر انصلات شعاع شمس تائه على صفحة بلّوريّة أو معدنيّة عاكسة، تطلّعت في منظار الرّشّاش فإذا شابّ بنظّارة سوداء يمسك بيده قطعة زجاج أو صفيح تلمع، ويرفع هامته نحوي في تحدّ. أبصرته يزيل نظّارته ويحدّق فيّ بتركيز ويصرّ أسنانه في حنق. انتابني ذعر مفاجئ كاد يوقع السّلاح من يديّ، وعلا الخفق في صدري واللّهاث. تراجعت إلى الوراء أسند ظهري إلى سور السّطح الواطئ، وألتقف أنفاسي. لكأنّ الوجه هو الوجه، وإن بدا نابضا بالحياة هذه المرّة. أيّ لغز هذا وما الذي وراءه؟ استدرت دون أن أفارق وضعي الذي يضمن لي التّخفّي عن العيون، وأعدت النّظر في منظار سلاحي، فلم أر في الوجوه التي تتموّج عن بعد، مكبّرةً، ذلك الوجه الذي بدأ يفسد عليّ نهاري ويشوّش تركيزي. استرخيت في مكاني مادّا رجليّ أمامي. وضعت السّلاح بجانبي، أشعلت سيجارة، وغصت في صمت موتور وتفكير لا تقرّ له وجهة.

ما هذا الذي يتراءى لي في كلّ آن؟

هل هو وهم أم حقيقة؟

قلّبت النّظر حولي فإذا السّطوح كلّها فارغة. لا شكّ أنّ القرعة اليوم وقعت عليّ أنا وحدي. على الأقلّ في هذا المربّع. هذا الموقع الذي أراده الأعراف منطلقا لعمليّات فرديّة.

تساءلت، وأنا متكئ أدخّن سيجارتي على مهل، لماذا ندعى في كلّ مرّة إلى قنص عدد محدّد لا نتجاوزه؟ لو كانوا فعلا يريدون قمع المتظاهرين وإخماد أصواتهم نهائيّا لفسحوا لنا المجال كي نحصد الأرواح بلا حساب، بكلّ الأسلحة الممكنة، حتّى لا يجرؤ أحد بعد اليوم على التّمرّد. أمّا أن نصيب منها قلّة قليلة، هنا وهناك، فلن ينتج عن ذلك سوى إشعال الغضب حدّ الغليان، كمن يصبّ الزّيت على النّار. ألا تكون تلك غاية من يدفعوننا إلى ارتكاب هذا الصّنيع؟ ألا يكون هدفهم قلب أوضاع البلاد رأسا على عقب لنيّة مبيّتة؟ ونحن كالعادة رؤوس يمدّون بها حرابهم، كي نطعن ونبقر دون تفكير. إلى الأمام! سر!

انسحبت عند هبوط اللّيل، دون أن أطلق طلقة واحدة. لم يعد بوسعي أن أتابع ما يجري عبر المنظار. خوف غامض كان يعقل يدي. كنت أخشى صراحة أن أقع على ذلك الوجه الغريب. هل هو غريب حقّا؟ لكأنّ له شبها منّي! أم أنّي... لا أدري. ما عدت أدري. بقيت جامدا في موضعي ذاك تمور في صدري خواطر مضطربة إلى أن هبط الظّلام وبدأ يرخي سدله على المدينة. فكّكت الرشّاش وأعدته في جرابه مع القناع والذّخيرة، ثمّ تسلّلت من سطح إلى سطح حتّى تلقّفتني دوريّة عادت بي إلى الثّكنة، حيث أعدت عدّتي وعتادي ولبست ثيابي،

قبل أن تقلّنى إلى مشارف الحومة التى أسكن بها. نزلت من السيّارة المدرّعة، وأوغلت فى ليل تشتّت ظلمته فوانيس شاحبة، لا يسمع فيه غير خطواتى تقرع الطّريق المحفَرة باتّجاه بيتى ونحيب ريح حزينة متعبة كأنّها تنعى من قضى نحبه فى الأيّام الأخيرة.

على مشارف سكني، أحسست بوخز البرد ينفذ إلى جسدي، ونثيث مطر ينهال على رأسي، ووقع أقدام تقرع الرّصيف خلفي. أقدام، بل هما قدمان فقط... طق طق طق... وقع خطى شخص واحد. طق طق طق... وقع حذاء ذكوري، أنا واثق برغم دوّيّ الرّعد الذى يصدّع الآذان. التفتّ فإذا الشّارع خلو إلاّ منّي، ومن مطر تلوح خيوطه رقيقة تحت ضوء الفانوس الشّاحب أو شعشعة برق تخلب البصر. لا ريب أنّ من كان يسير خلفى وصل إلى غايته ودخل بيته، ربّما، لأنّى لم أسمع أيّ باب يفتح. ذلك ما قلت لنفسى أقنعها على أيّة حال، ولكن ما كدت أستأنف السّير حتّى عاد وقع الخطى خلفي، يقرع الرّصيف بالوتيرة نفسها. استدرت بسرعة لأعرف من يقفو فى العتمة أثرى فلم يلح لى وسط همى المطر أحد. استأنفت السّير فاستأنفت الخطى قرعها الرّتيب، ومن عجب أنّها زادت من سرعتها حينما عجّلتُ الخطو، بل صارت تنمو باطّراد مع سرعتي، حتّى بلغت بيتي. دار قديمة ورثتها عن أبي، ولم أجد لا الوقت ولا المال لتصليحها وتوضيبها. فتحت الباب

الخارجيّ ونفذت إلى حوش الدّار ومنه إلى غرفة النّوم. خلعت ثيابى المبلّلة قليلا وفى البال تلك الخطى المريبة، وفتحت الخزانة لأسحب البيجامة، والطّبيعة فى الخارج تضطرم بهزيم رعد يتناءى ولعج برق يتضاءل وهمى مطر يزداد هسيسه، فإذا جثّة يلفّها كفن أبيض واقفة أمامي. ندّت عنّى صرخة مكتومة، واعترانى رعب مكين تخلخلت له ركبتاي، ثمّ دار بى رأسى ووقعت على الكليم البالى فاقد الوعي. عندما أفقت من غشيتي، كانت الخزانة لا تزال مفتوحة، يلوح فيها قميص تايوانى أبيض طويل جاءنى به صديق من الحجّ، جنب ثيابى معلّقةً أو مطويّة، ولا أثر لجثّة أو كفن. لبست بيجامتى وتدثّرت بروب من القطن المتين، وقصدت المطبخ فى ركن من الحوش، وكان المطر قد خفّ وناب عنه نثيث ضئيل، فأعددت لقمة، وعدت لأكلها على مهل فى غرفة جعلتها للجلوس والاستقبال والأكل وحتّى النّوم أحيانا إذا ما هدّنى التّعب، وأعدّيها بزجاجة الـ"مغن" التى أحتفظ بها لليالى الوجد والشّدّة.

شغّلت التلفزيون للمؤانسة، فليس أقسى عليّ اللّيلة من الوحدة. هل كنت خائفا؟ ربّما. ممّن؟ لست أدرى بالضّبط. من الأرواح الهائمة؟ ربّما، فقد مضت بى سبل لا يرجى منها إلاّ عفو الله. أطلّ متحاورون من أعمار مختلفة، ومن ضفّة واحدة، ضفّة الحزب الحاكم، حزب

"السّبعة الحيّة"، وأوغلوا في جدل متشعّب من أجل نتيجة واحدة: "المتظاهرون شرذمة لصوص، حفنة مشاغبين، عصابة إرهابيّة..." وبذا جعلوا إخوتنا في العرق والملّة مجرّد مصطلحات، نزعت عنهم إنسانيّتهم كي يسهل قتلهم. ونحن الأداة، نحن أبناء "الشّعب الكريم" الذي لا أفق له!

تهت في أفكار سود مظلمة وأنا أتساءل عمّن يكون صاحب ذلك الوجه الغريب الذي يطاردني كأنّ له وصيّة عندي، حتّى غلبني النّعاس، فنمت نومة مضطربة أفقت إثرها منتفضا على صوت عال، أو صراخ أو لست أدري ماذا. شربت جرعة ماء أرطّب بها حلقي وقمت إلى التّلفزيون أطفئه. وفجأة، طرق الباب، باب الغرفة وليس باب الدّار، فتولاّني الارتباك. أسرعت إلى الباب أتفقّده، ووقفت خلفه مكتوم الأنفاس أصيخ السّمع بتركيز شديد، وعلى طرف اللّسان سؤال كالعقدة لا يريد أن ينحلّ:

- من الطّارق؟

لم أدر كم وقتا بقيت واقفا أسند ظهري إلى باب الغرفة، أرهف السّمع لأهون حسّ، وفي الصّدر خفق متدارك، وفي الشّفاه ريق ناشف، وفي البال أسئلة تطنّ كعشّ زنابير. بعد انتظار لم يأت من ورائه ما كنت أخشاه، قدّرت أنّ ذلك مجرّد وساوس ولّدها الوضع القابض

الذى حكم علينا بالتّوتّر والسّهد والحيرة والقلق، أيّاما وليالِيَ، ليس إلاّ. هدأ اضطرابى وزال خوفى واطمأنّ قلبي، فمضيت إلى الكنبة أستوفى نومي. وما كدت اقتعد حافتها حتّى عاد الطّرق على الباب، واضحا هذه المرّة. تقبّض قلبى وسرت فيّ قشعريرة هزّت جسدى كلّه. نظرت إلى ساعتى فإذا اللّيل قد جاوز نصفه ببضع دقائق. قلت فى صوت الخانق كأنّى أحدّث نفسي: "من الذى يطرق بابى فى مثل هذه السّاعة؟ وماذا يريد؟"

كدت أقول: "إنسٍ أم جان؟"، والخفق فى صدرى يشتدّ، ثمّ تمالكت وسألت بصوت تعمّدت تضخيمه لأغالب خوفي:

- من بالباب؟

- افتح يا منصور! ردّ صوت لم أتبيّنه.

- من أنت؟

- أنا سالم.

سالم زوج أختى حبيبة! ما الذى جاء به فى هذه اللّيلة المطيرة وفى هذا الوقت؟ فتحت الباب فقفز إلى وسط الغرفة وهو ينفض قطرات المطر كالطّير المبلّل. نظر إليّ بعينين يغشاهما سواد لم أعهده على وجهه الدّائم البشاشة. بدا وهو يمسح بيده البلل عن جبينه وأهدابه أنّه كابد أوقاتا عسيرة.

- حرنا فى الاتّصال بك يا أخي! لماذا تغلق جوّالك؟

- سالم! ما الأمر؟ ليس من عادتك أن تخاطبنى بـ...

قاطعنى بصوت متهدّج يمتزج فيه الغضب برنّة الفجيعة:

- أمل، ابني، ابن أختك...

- ما به؟

- قتلوه.

صدمنى الخبر بعنف، كركلة فى الأحشاء أو طعنة مباغتة فى الظّهر، وغامت الدّنيا أمامى فتهالكت على الكنبة ورأسى بين يديّ، وصور النّهار الذى لا يريد أن ينقضى بسلام تنهال عليّ، كأنّها منشورة أمام ناظريّ.

قلت من بين أسنانى وأنا فى وضعى ذاك:

- من قتله؟

- ههه! ردّ سالم فى سخرية مرّة. ومن غير البوليس؟

- فى مظاهرة؟

- منذ يومين. خرج ولم يعد. ولّما سألنا عنه، قيل لنا... قيل لنا... وأجهش بالبكاء.

رفعت رأسى أتأمّله فى إشفاق، وبالى منصرف إلى حبيبة، أختى الكبرى. كيف تقبّلت المسكينة الخبر؟ وما هى ردّة فعلها وقد باتت

تعرف أنّ القاتل من الشّرطة؟ وما ظنّها بى الآن وهى تعلم أنّى من خيرة الرّماة فى سلك الأمن، وأنّى أحتفظ ببعض الشّهائد والميداليّات التى حزتها لهذا الغرض؟

- أنت متأكّد من أنّ البوليس هو...؟

- أجل! ردّ فى حدّة هزّتني. أولئك الذين يسمّونهم "قنّاصة". رفاقه أكّدوا لى ذلك.

وسكت برهة يكفكف دمعه ثمّ قال:

- أنت لست منهم على أيّة حال. هه؟

- أووووه... لا! أبدا!... لماذا تسألنى هذا السّؤال؟

- لأنّى أقسمت أن أثأر لابنى من كلّ قنّاص يصادفني، ولو فى ذلك هلاكي.

اعترانى ارتباك حاولت مداراته قدر جهدي. هو فى حال يصعب معها إقناعه بأنّ الانتقام من الدّولة غير ممكن، لأنّها تبيح لنفسها العنف وتستأثر به دون العالمين. وكلّ خروج عن الطّاعة يلقى شرّ العقاب.

- ما لك ساكت؟

- هه!

- سألتك كيف السّبيل لعرض جثّة ابنى على طبيب خاصّ يثبت أنّه قتل رميا بالرّصاص، خلافا لما يدّعيه طبيب الشّرطة العدليّة.

- أين هي الآن؟
- في مستشفى شارل نيكول. وهم لا يريدون تسليمها.
- هم! من تقصد؟
- أقصد المسؤولين في المستشفى. "تعلميات من الدّاخليّة" حسب أقوالهم. من أجل هذا جئت أستعين بك.

ماذا بيدي أن أفعل ضدّ قرارات تأتي من فوق؟ سألت نفسي وأنا أنهض لارتداء ثيابي كي أرافقه، فليس من المعقول في شيء ألاّ أساعد زوج أختي، أن أتظاهر على الأقلّ، لأنيّ كنت على يقين من أنّ سعيي لن يأتي بالنّتيجة المرجوّة.

عندما هممت بفتح الخزانة، وقفت مرتعبا وفي البال ذلك الرأس الذي فاجأني هذا الصّباح، وذلك الوجه الذي رأيت فيه ملامحي.

باريس في ٥ أكتوبر ٢٠١١

الغنيمة

حدّث سيّد عبّاس قال:

والشّهداء لم يلاقوا بعدُ ربّهم، تنادى القوم لاقتسام الغنيمة. الجميع هبّوا هبّة رجل واحد لدخول السّياسة من بابها الخاطئ. كلّهم، المقيمون والمغتربون، المهاجرون طوعا والمنفيّون، الخانعون والمشاكسون، الصّامتون والموالون، الأصوليّون والشّيوعيّون، الاشتراكيّون واللّيبراليّون... ولكن قبل اقتحام العقبة، كان لا بدّ من التّخلّص منّا، منّا نحن بالذّات، حتّى تخلو لهم السّاحة فيبيضوا فيها ويفرّخوا.

عبست وجوههم إذ رأونا لا نزال ساعين لتحقيق أهداف الثّورة، وقالوا لنا فى نبرة من ينهر أطفالا لا حقّ لهم فى السّهر: "البلاد دخّلتوها فى حيط! عودوا إلى بيوتكم." لم نفاجأ، فقد عوّدونا على ذلك من عهد قديم. لا شأن للصّغار بما يجري. المسألة تخصّ الكبار فقط. هم وحدهم يفهمون الأمور، فينقضون ويبرمون، ويحبسون ويجيلون.

•••

حدّث الرّاوى قال:

انتاب سيّد عبّاس فرح غامر وهو يخرج إلى الشّارع صحبة نفر من أترابه، ليعلن تمرّده على السّلطة، سلطة الكبار. نعم، الكبار، الكبار فى السّنّ وفى المقام.

ناحل ذابل، ممتقع الوجه كأنّما داوم الإقامة فى قبو لا تدخله الشّمس البتّة. إذا مشى غضّ البصر كمن يبحث فى الطّريق عن صكّ ضيّعه. فى نظرته خجل مزمن، وفى حركاته اضطراب من يخشى إتيان ما يثير الغضب من حوله. هو لا يذكر أنّه عاش مثل هذه اللّحظة من قبل، إطلاقا. كان يحسّ أنّه يجتاز طقس عبور، كمن يدفن عزوبته، وهو يصرخ بملء رئتيه ضدّ البوليس فى الظّاهر، وذهنه منصرف إلى كلّ رمز من رموز التّسلّط، فى البيت والمدرسة، فى الشّارع والمؤسّسة.

تعوّد منذ نعومة أظفاره ألاّ يرفع صوته ولا عينيه فى من هم أكبر منه سنّا وقدرا ومكانة اجتماعيّة. أكثر من ذلك، كلّ هؤلاء كان لهم حقّ تأديبه متى شاؤوا، لا، بل هم مدعوّون إليه فى الغالب، كحقّ لا بدّ من مراسه. بذلك لُقّن. يذكر أباه يوم رافقه إلى المدرسة. صافح المعلّم بحرارة ثمّ قال يوصيه بتربية ابنه وتسليط أقسى العقوبة عليه عن تقصير أو من دونه: "حاسبنى بجلده!" وكان سيّد، إذا صادف أن عاد إلى

البيت وأثر صفع على خدّه، قابله أبوه بعقاب مستجدّ، لأنّ عقاب المعلّم مستحقّ لا جدال فيه ولا خلاف حوله.

تعوّد سيّد أيضا أن يطيع الأوامر فى كل آن، حتّى وإن جرت مجرى لا يخدم مصلحته، وكبر فكان الزّجر أعظم، وطاعة أولى الأمر لا مناص منها، فليس أشنع من الاعتراض عليهم أو عصيانهم، لأنّ ذلك يضعه فى خانة المشاغبين والمنحرفين والمنفلتين عن العقال وحتّى الخارجين على القانون الذين تحقّ متابعتهم ومقاضاتهم وسجنهم أو نفيهم أو حتّى إعدامهم ليكونوا عبرة لمن يعتبر، تكتب برؤوس الإبر على مآقى البصر.

على كلّ ذلك أعلن تمرّده، وبدا، وهو يهتف وسط رفاقه فى شارع يمور بخلق لا يحصون عددا، أنّه فرح حتّى الثّمل، فرح بالصّراخ والزّعيق والهتاف والتّلفّظ بما حُظر عليه سنين طويلة. كان يطلق ساقيه جريا فيعبر الشّارع من الرّصيف إلى الرّصيف كأنّما يثأر لنفسه وهو الذى فُرض عليه منذ الصّغر أن يمشى "الظّلّ الظّلّ". حتّى كان ما كان.

•••

حدّث سيّد عبّاس قال:

لم نرهم حينما جدّ الجدّ، واستعر اللّهب، واشتعلت البلاد بنيران حارقة أتلفت الحرث والنّسل، إلاّ فى الصّفوف المقابلة، صفوف من يخلدون إلى السّعة والدّعة، أو صفوف القانعين من المشهد بالفرجة، من مسافات بعيدة، يتابعون أعمال القمع والبطش فى حياد خادع، كأنّها تقع فى مدينة غير مدينتنا وبلاد غير بلادنا وكوكب غير الذى نعيش على سطحه.

وكنّا، برغم البعد، نسمعهم يستعذبون ما نلقى من نكال، ويقولون فينا كلام السّفاهة والشّماتة ينقلونه بعضهم عن بعض بغير تحفّظ. وأكثرهم كياسة كان كالعادة ينصحنا بالكفّ عن أعمال الشّغب وتدمير البنية التّحتيّة وتخريب اقتصاد البلاد... وتهم أخرى يفصّلونها على مقاسنا تفصيلا.

وحين نسألهم: "من أنتم؟"

يجيبون: "معارضة."

•••

حدّث الرّاوى قال:

فى باحة أحد مقاهى العاصمة على الطّوار العريض المحاذى للشّارع الرّئيسيّ، قبالة سينما البالاص، وضع سيّد عكّازه، مدّ رجله اليمنى مستقيمة بغير ثني، وجلس بصعوبة بمساعدة رفاق له جاؤوا يرتّبون أوراقهم للمرحلة القادمة، والطّقس جاهم ينذر بالمطر، والبلاد تشهد طفرة حامية، كالموضة يعتنقها الجميع، وتشتعل بفورة صاخبة، كاندفاع المغامرين نحو المناجم والأنهار والأدغال بحثا عن الذّهب، والنّاس من حولهم تغلى بالجدل العقيم.

– هذه فرصتنا، قال فى نبرة حماس عالية أحد الجالسين إلى مائدة بجوارهم، ومضى يقنع من حوله بتكوين حزب سياسيّ.

سأل سيّد:

– لم لا نؤسّس حزبا نحن أيضا؟

مال عليه أحد رفاقه، واسمه أمين، أوسعهم تجربة وأكثرهم اطّلاعا على كواليس السّياسة وما يحاك خلفها، وقال فى ما يشبه الهمس:

– هذه معارضة كرتونيّة لا تخرج عن لعبة تبادل الأدوار.

وسكت برهة يتحسّس وقع كلامه فى رفاقه ثمّ أردف:

– الآن، وقد فُتح الباب على مصراعيه، سوف تظهر فى السّاحة

أحزاب بالعشرات وربّما بالمئات، يحاول أصحابها أن يقطفوا غنيمة لم يسعوا إليها، وعمّا قريب سوف نجد حزبا فى كلّ حومة وربّما فى كلّ زنقة.

- التعدّدية علامة صحّة، علّق سيّد. أليس كذلك؟

- لا، هى هنا دليل طمع فى المناصب ولهفة على الكراسيّ، قال أمين. أغلب تلك الأحزاب لا يساوى عدد أعضائها روّاد مقهى بير طرّاز. وأكاد أجزم أنّ سوّاقى التّاكسى أو باعة الجرائد أو عسس الحظائر أو ماسحى الأحذية أو باعة التّين الشّوكيّ أو الحمّاصة أو حمّالة سوق الجملة أو حتّى "كرّافة"[1] نهج سيدى بومنديل... لو تجمّعوا لكوّنوا حزبا أكبر وزنا من أيّ من هذه الأحزاب. أمّا إذا التفّ جمهور فريق كرة من الفرق الكبرى فى حزب فسوف يفوق وزنه أحزاب هؤلاء الانتهازيّين كافّة.

- هذا لا يمنع من تأسيس حزب يمثّلنا، اقترح سيّد. لو نجمّع صفوفنا عبر الفيسبوك والتّويتر...

قاطعه أمين بقوله: "نحن لا نملك مالا ولا مقرّات نلتقى فيها. ليس لنا غير عزيمة التّصدّى لما يحاك ضدّ الثّورة."

•••

١- نشّالون.

حدّث سيّد عبّاس قال:

... وفى غمرة هوسهم بالأحزاب وما يأتى من ورائها من كراسيّ وبحملات انتخابيّة مضحكة صارت تتصدّر المشهد السّياسي، غفل أولئك الكبار أو تغافلوا عن أصحاب الفضل عليهم. نسوا أو تناسوا من أخرجهم من الرّقّ إلى العتق، من ضحّى من أجل أن تشرق عليهم شمس الحرّيّة، من كان له الفضل فى حصولهم على هذه الرّخص التى يباهون بها أمام النّاس، ويَعدونهم بالمنّ والسّلوى، وكأنّهم حازوا بعدُ الملك كلّه.

كانوا يمدّون البصر كأنّهم يقرون ما أمامهم، يستعجلون الوصول إلى نقطة سرابيّة، ولا يلقون لفتة إلى الواقع المرّ الذى يدوسون أديمه. قتلى يوارون الثّرى فى صمت وقلّة اكتراث، وجرحى يصرخون بالشّكوى ولا من مغيث.

•••

حدّث الرّاوي قال:

يذكر سيّد ذلك اليوم المنذر بعاصفة لا تهدأ. خلق ما رأته عيناه مثله من حيث كثافته وهديره الذى يهزّ الأركان، خرج يتحدّى البوليس والحزب والميليشيا وكلّ من يمثّل فى نظره السّلطة. فتيان وفتيات كانوا يحسبونها فسحة، يهتفون بالشّعارات المندّدة، ويرفعون الرّايات، وإذا فيلق من رجال الشّرطة بأزياء رسميّة ومدنيّة يحملون عليهم بالهراوات والقنابل المسيلة للدّموع شتّتوا صفوفهم وفرّقوهم بددا. وفيما هو هارب يسدّ منخريه بمنديل مبلّل يتّقى الدّخان المعشي، حانت منه التفاتة فرأى صديقه أيمن على الأرض وأعوانا يمزّقون لحمه بالمقارع ويرفسونه بأحذيتهم. كان يفكّر فى نجدته، بطريقة أو بأخرى، دون أن يدرى بالضّبط ما هى وقد كبّل الخوف أطرافه، حين اخترقت أعلى فخذه رصاصة، شلّت حركته فوقع على الأرض وراح يزحف كالمقعد حتّى فقد وعيه.

عندما أفاق فى المستشفى، سألوه: "من فعل بك هذا؟" قال: "أحد القنّاصة." قالوا: "لا وجود لقنّاصة فى بلادنا." ولّما أصرّ، ردّوا عليه فى استهزاء: "حسنا. إذا وجدت قنّاصا، فجئنا به حتّى نقتصّ لك منه." ومرّت الأيّام والجميع ينكرون وجود قنّاصة، حتّى صار سيّد يشكّ

في ما ذهب إليه، ويقول لعلّ جرحه من أثر سهم طائش ألقى به أحد رياضيّي الرّماية، أو لعلّه من قَرص ذبابة فرّت من مختبر للموادّ التّنشيطيّة، وربّما من سقوط نيزك أو قطعة غيار من المركبات الفضائيّة التي ترود بالكوكب الأزرق. ربّما، لأنّ من هبّوا لقطف الغنيمة ينكرون في أحاديثهم القنّاصة، ويعتبرون الجرحى والقتلى آثارا جانبيّة، كما يقول الأمريكان، لانتفاضة شعبيّة.

باريس في ١٢ أكتوبر ٢٠١١

الأسيرة

- ١ -

تعلّمتُ الرّقص والغناء. تعلّمتُ ارتياد قاعات الأفراح وأوكار السّهر. تعلّمتُ تقليد الغواني، فى لباسهنّ الذى يوحى أكثر ممّا يبدي، وحركاتهنّ الموزونة بدقّة وحسبان، وحيلهنّ لشدّ الانتباه، كتقليب النّظر خلسة، والابتسام الوانى الذى يكاد لا يرى، وطرائق التّصفيق وجرع الكؤوس وتدخين السّجائر ذات المبسم المركّب... كلّ ذلك من أجله هو. من أجل أن يعلم بوجودي، أن ينتبه لي، ويرسل فى طلبي. لأنّى كنت على يقين من أنّ ظلّه يرفرف على كلّ مكان أرتاده.

ولم يخب ظنّي.

- ٢ -

لم يكن أبي يُرى إلاّ وسواد الحزن يظلّل وجهه. كذلك هو في غدوّه ورواحه، في ليله ونهاره. لا شيء يسلّيه، لا لحن يطربه، لا مشهد يأخذ بمجامع قلبه. يقضّي النّهار في العمل مكدّر الخاطر، وحين يؤوب إلى البيت يأكل لقمة على عجل وهو يسألنا عن يومنا أسئلة مقتضبة من باب أداء الواجب ورفع اللّوم، ثمّ يخلد إلى نوم مضطرب يجفو فيه جنبه عن موضعه، ترتاده الكوابيس بلا هوادة، وتوقظه في جوف اللّيل مرتاعا من أعداء نعرفهم دون أن يفصح عنهم، فينتفض من نومه والرّعدة تهزّه هزّا، كأنّه مقرور يرتعض من الحمّى، أو محتضر ينازع.

كذلك هو منذ أن اختفت أمّي، أو هربت، أو ماتت، لأنّ الأخبار حولها، كأخبار حكّامنا، يغلّفها الغموض ويشوبها التّباين وحتّى التّضارب. أبي مثلا يقول إنّها ماتت غرقا ولم يعثر على جثّتها البتّة، ومن ثَمّ لم يُقَم لها مأتم ولا موكب دفن، ولم تكرّم بقبر كسائر الموتى. وبعض الجيران يتحدّثون حديث الغيبة عن هروبها مع عشيق ثريّ أغراها بالمال والوعود، فيما بعضهم الآخر يقسمون بأيمان مغلّظة أنّ

امرأة شريفة مثلها لا يمكن أن تقدم على سوأة كهذه، وأغلب الظّنّ عندهم أنّها قُتلت أو اختطفت. وحين أُسألهم عمّن يقف وراء الخطف أو القتل وهما من الجرائم النّادرة في بلادنا يرفعون حواجبهم إلى فوق، يلمّحون لفاعل أو أكثر تنكره أفواههم وتنطق به نظراتهم ؛ وحين أسأل عن الدّوافع يهزّون أكتافهم في حركة من ليس له علم ويولّون الأدبار. والحقّ أنّ حديثهم هذا زرع بذرة الشكّ في صدري، فليس ثَمّة ما يحملني على تصديق رواية أبي وتكذيب روايتهم هم، وكلتاهما لا تستند إلى حقيقة ثابتة ؛ ثمّ صار الشّكّ يقينا يوم جاءتني رسالة من مجهول يعلمني بأنّ أمّي لم تمت، وأنّ اختفاءها لم يكن بإرادتها. نقلت الخبر لأبي وفرح عارم يطير بي إلى رحاب السّماء السّابعة، فإذا هو يستقبله بفتور. نكّس رأسه وقال في أسى وشت به قسماته المكفهرّة:

– يا ابنتي، أنت تعذّبين نفسك و تعذّبينني معك. أمّك ماتت، صدّقيني، وليس من الحكمة أن نعيش على الوهم.

وسكت برهة لعلّ نفسه كانت تمور لحظتها بالخواطر المضطربة، ثمّ نظر إليّ وشعور القهر يثور بأنفاسه، وأضاف يحذّرني في لهجة صارمة:

– لا تعودي إلى هذا الموضوع، إطلاقا. فهمت؟

أغلق شفتيه على ذكر المرأة الوحيدة التي شاركته حياته، حتّى وافته المنيّة. وبموته عدت أسأل عن سرّ اختفاء أمّي.

- ٣ -

كنت فى باريس أتابع دراستى حين جاءنى نعى أمّي. لم يطالعنى عند العودة غير صورتها فى إطار من الخشب المنقوش مثبت على جدار الصّالة، ونحيب أخى ربيع فى شهيق متقطّع يهتزّ له منكباه وقد وضع رأسه بين يديه وارتفق على ركبتيه، وحزن دفين يحاول أبى كتمانه فيتأبّى عليه. ولا أثر لجثّة المرحومة. عانقنى ربيع طويلا ونحن نجهش بالبكاء، ثمّ سحبنى أبى إلى ركن من قاعة الاستقبال، طوّق بذراعه كتفيّ، وراح يشرح لى بصوت تخنقه العبرات ظروف وفاة أمّي. فسحة على ضفاف المتوسّط بين قربص وسيدى الرّايس... انتهت بمأساة. المسكينة أرادت غطسا عابرا ترفيها عن النّفس فى ذلك اليوم القائظ فإذا هى تغوص ولا تطفو. غرقت وأكلها البحر الذى لا يشبع أبدا. وبرغم مساعى رجال الحماية المدنيّة لم يعثر على جثّتها.

عجبت من إقدام أمّى على المغامرة بنفسها فى ساحل صخريّ خطير، وهى التى لم يعرف عنها ولع بالغوص فى أعماق البحر. وعجبت أكثر للأهل والجيران يديرون لنا الظّهر فى مصابنا الجلل، وعهدهم أن يلبّوا

داعي الموت في كلّ آن. تقبّلت فقدها بصبر وجَلد، ولم أتقبّل الباقي. شيء ما بداخلي كان يهتف بي بأنّ وراء ذلك الموقف الجافي ما وراءه. وهو ما يبعث على الحيرة والتّساؤل.

طردت فكرة الهجرة وقد أمسى البيت خاليا أو يكاد، ونذرت جهدي ووقتي لأبي وأخي، وكلاهما بات قاصرا في غياب أمّي، عاجزا عن القيام بشؤونه بنفسه. ولمّا التأم الجرح واستعدت بعض توازني، بدأت أسأل عنها حتّى كان من أمري مع أبي ما كان.

ثمّ كان موته المباغت، ولم يكن به علّة، فزاد نفسي ضراما وريبة. قدّرت أنّ سرّه الذي نهش دواخله هو سبب موته. لقد مات وفي الصّدر قهر وفي الحلق غصّة، ولن يهنأ لي بال إلاّ إذا عرفت مبعث ذلك القهر ومصدر تلك الغصّة، وإن كنت أستشعر أنّ لهما صلة وطيدة باختفاء أمّي، ظلّ أبي يكتمها حتّى النهاية.

بقيت أتقصّى الحقائق أيّاما لا أرى للنّفق أيّ منفذ، ولا ألمح وراء الغيم أدنى شعاع. كدت أيأس وأقنع برواية أبي حتّى جاء يوم حمل إليّ خبرا قدّرت أنّه قد يكون الخيط الذي سيهديني إلى الحقيقة، والضّوء الذي سينير لي السّبيل. مكتوب من ذلك المراسل المجهول في صفحة A4 هذا المرّة، صادرة عن طابعة إلكترونيّة يقول فيها:

إذا أردت العثور على أمّك، فاتّبعي الخطوات التّالية: ....

- ٤ -

فى فجر يوم خريفيّ هادئ والشّمس ترسل أشعّة دافئة، والسّماء يوشّى أطرافها الغمام، قصدت الحرس الوطنيّ فى مدينة سليمان. كان لا بدّ أن أقوم بخطوة طالما أرجأتها إلى أجل غير معلوم، قبل أن أعمل بما يقترحه عليّ صاحب الرّسالة. جاءنى الجواب قاطعا لا يقبل الشّكّ. قيل لى ألاّ أثر لحادثة من هذا النّوع فى التّاريخ المذكور، ولا أثر لإبلاغ عن حادث طرفاه فلان (اسم أبي) وفلانة (اسم أمّي).

تلقّيت الخبر فى ذهول كتم أنفاسي. داخلنى شعور غريب، مزيج من الفرح والخوف. ختم على لسانى صمت ثقيل قبل أن أسأل ضابط الحرس:

– وأين أمّى إذن؟

– اطمئنّي، قال الضّابط الأسمر ذو الرّأس الكبير والشّارب الكثّ وهو يهرش فروة رأسه الأجرد. سنفتح محضرا فى الحال، ونقوم بالأبحاث اللاّزمة.

مرّت أيّام طويلة قبل إعلامى بأنّ الأبحاث لم تأت بجديد، وأنّ أمّى لم

يعثر لها على أثر، لا حيّة ولا ميّتة. قيل لي يومئذ في نبرة حياد واضحة إنّها قد تكون غادرت البلاد سرّا لغاية تخصّها، أو إنّ أبي تخلّص منها وواراها في مكان لا يعرفه إلاّ هو، وأبي مات ولا يمكن استنطاقه أو تتبّعه لمعرفة مكان دفنها، ومن ثمّ تقرّر حفظ القضيّة.

تساءلت كيف تُحفظ القضيّة ولم يعثر على أمّي حتّى جثّة هامدة أو متحلّلة في أعماق البحر أو تحت التّراب؟ قد تكون مختفية باختيارها أو رهينة أو قتيلة، ولا بدّ حينئذ من مواصلة البحث للكشف عن الحقيقة قبل البتّ في شأنها. أمّا أن تحفظ هكذا، فهو أمر يؤكّد ما ذهب إليه المراسل المجهول، ويدفعني إلى العمل بنصائحه، لعلّي أميط اللّثام عن هذا اللّغز.

- ٥ -

كان قد كتب يقول:

أوّلا، تعلّمي الغناء والرّقص.

ثانيا، تجمّلي كأحسن ما يكون التّجمّل.

ثالثا، تعلّمي كيف تبدين مفاتنك دونما ابتذال.

رابعا، ارتادى أعراس علية القوم، وقاعات الأفراح فى الفنادق الفاخرة.

خامسا، كونى دائما مصحوبة، لا تذهبى بمفردك.

سادسا، تريّثى قبل قبول الدّعوة من أيّ كان.

سابعا، الزمى الاعتدال فى كلّ شيء.

ثامنا، حافظى على اتّزانك فى سلوكك وكلامك.

تاسعا، لا تكشفى عن هويّتك لأحد.

عاشرا، لا حاجة لتقليب النّظر من حولك، فثمّة من يراقبك.

ذى وصايا عشر إن التزمت بها، فسوف تمهّد لك الطريق إلى ضالّتك، وإن حدت عنها فقولى على أمّك السّلام.

- ٦ -

دعانى فرفضت. رجل وسيم فى العقد الرّابع يرتدى بذلة فى بياض اللّبن بربطة عنق سماويّة. ضامر البطن، حليق الوجه، ذو أسنان متناسقة وشعر قصير يلمع بالجمد المثبّت. فى معصمه الأيمن سلسة "كارتيي" وفى الأيسر ساعة "روليكس".

ألحّ فأومأت ناحية أخى ربيع وقلت أحذّره:

- زوجى شديدة الغيرة. لو يسمعك فسوف يبقر بطنك فى الحال، ويلقى بمصارينك إلى القطط.

انسحب دون أن ينطق بلفظ خشية الفضيحة، ربّما، وتركنى أختلج فى صمت. رابتنى منه، وهو يبتعد، هزّة رأس ساخرة وبسمة غريبة أشبه بالتّكشيرة ارتسمت على زاوية فمه. تساءلت هل وضعت يدى أخيرا على الخيط الذى سوف يقودنى إلى ضالّتي؟ وهل هو المعنيّ أم ثمّة من وراءه؟

عملت بوصايا الباعث المجهول وداومت حضور الأعراس والسّهرات الرّاقية رفقة أخى ربيع فى نهاية كلّ أسبوع تقريبا، ننسج الحيلة تلو

الحيلة لارتياد الفنادق والقاعات المحجوزة، وفي الصّدر أمل ضعيف ببلوغ أربنا وخوف من أن تدور علينا الدّوائر دون أن نظفر بطائل.
وجدت صعوبة في إقناع ربيع بمرافقتي، فليس من السّهل أن يحتمل عيون الرّجال تنحطّ عليّ في كلّ محفل، وقد أتقنت البروز بوجه الغادة التي تتعقّبها اللّحاظ، ساعدني في ذلك تردّدي على بعض المواقع النّسويّة على الإنترنت، وصالون حلاقة بحيّ المنار الثّاني لصديقة قديمة. لم أسلم حتّى من النّساء ورؤوسهنّ التي تتقارب عند مروري ونظراتهنّ التي تفيض بحقد لا يخفى وتعاليقهنّ التي تربو عن الهمس.
ليلتها، غادرنا الفندق واتّجهنا إلى مرآبه المشرع في الهواء الطّلق وسط غابة قَمَرْت، التي حازها المقرّبون من السّلطة لأنفسهم يستثمرونها في شكل منطقة سياحيّة خاصّة بهم. تناهى إلى سمعنا هدير البحر وتكسّر أمواجه على الشّاطئ القريب، وغمرتنا منه ملوحة ونداوة دبقة. ونحن نقترب من سيّارتنا الـ"فيات بونتو"، أقبلت على أخي امرأة لا يوحي مظهرها بالرّيبة، ورجته أن يساعدها على إخراج سيّارتها المحصورة بين عربتين في موقع ضيّق.
وما كاد أخي يجلس خلف عجلة القيادة حتّى ارتمى عليّ رجلان فكتما صرختي وكبّلا حركتي وحشراني في المقعد الخلفيّ لسيّارة

"هامّر" سوداء، مصبوغة الزّجاج، قبل أن يركبا بدورهما، فإذا صاحب البذلة البيضاء جالس في المقعد الخلفيّ.

تبسّم لي وقال يهدّئ روعي:

- لا تجزعي. هي زيارة قصيرة، غير بعيد من هنا، ثمّ نعيدك إلى بيتك.

- ٧ -

في الحقيقة، لم أفاجأ بما حصل لي، لأنّي كنت أتوقّعه، ليس لكوني حرصت على وقوعه فحسب، وإنّما أيضا لأنّي كنت لاحظت من بين المدعوّين رجلا نظيف المظهر هادئ النّظرات مقلّم الأظفار بعناية دأب على حضور جلّ الأعراس التي حضرتها، مثلما دأب على تصوير المشاركين في إحيائها، النّساء بخاصّة، وهو ما أوحى لي في البداية بأنّه مصوّر محترف يكسب رزقه من هذه المهنة، غير أنّ استعماله كاميرا صغيرة تخالف تلك التي يتوسّل بها المحترفون ينفي عنه تلك الصّفة، وهذا ما ألهب شكّي في هويّته، لا سيّما أنّ الباعث المجهول كان نبّهني إلى شخص يداوم الحضور، ويلتقط صورا ينقلها إلى من يهمّه الأمر. وما زلت أذكر أنّي فاجأته أكثر من مرّة وهو يلتقط لي صورا أو أشرطة فيديو في غفلة منّي، من خلف ومن أمام، سواء حينما أكون أغنّي على المنصّة، أو في حلبة الرّقص، أو متّجهة إلى دورة المياه أو جالسة إلى المنضدة المستديرة أرشف كأسي. تجاهلت أمره طبعا، وتركته يعبّئ آلته بما يشاء عسى أن يعينني على تحقيق مرامي.

أمّا هذا الذي خاطبني اللّيلة، ثمّ أرسل رجاله يختطفونني، فلم أره من

قبل قطّ. كنت أسمع زفيره ونثيره على يميني، وأشمّ أنفاسه المتخمة برائحة التّبغ، رائحة نفّاذة تطغى على العطر الذى ضمّخ به جسده، فيما ظلّ معاونه الجالس على يسارى يلزم الصّمت، ولولا كاهله المتين الذى كنت أصطدم به عند اهتزاز السّيّارة كما أصطدم بجدار من الخرسانة لما شعرت بوجوده. عجبت من رباطة جأشى أمام أغراب يحوّلون وجهتى بالقوّة، حيث لم يختلج لى عضو كأنّى خبيرة فى هذا الميدان. تساءلت، والسّيّارة التى غلّقت نوافذها بإحكام تحسّبا لاستغاثة قد تصدر عنّى تطوى الطّريق فى جوف اللّيل صوب وجهة محدّدة، عن موقف أختى من بعدي. هل تفطّن لعمليّة اختطافى فى الوقت المناسب أم أنّ المرأة استطاعت أن توجّهه وجهة أخرى؟ وماذا بوسعه أن يفعل لو تفطّن؟ تساءلت أيضا هل يكون هذا الجالس على يسارى هو المعنيّ بالأمر أم أنّه صيّاد يبيع صيده لمن يشتري؟

أحسست فجأة بيده الطّريّة النّاعمة تداعب فخذي، فانتفضت.

– ماذا تريد منّي؟ سألته وفى صدرى خفق شديد، لأنّى أيقنت لحظتها أنّى جازفت بنفسى وجئت ألج عرين الذّئاب بقدميّ.

- ٨ -

ضحك ضحكة خبيثة وردّ بسؤال:

- وماذا يمكن أن يريد رجل من امرأة في مثل نضارتك وفتنتك؟

في العقد الخامس، وجه مدوّر كوجه الدّمية، بطن مكوّر كأغلب مدمني البيرّة، شعر خفيف كمن يشهد صلعا يوشك أن يذهب بلمّة رأسه، وعينان حمراوان مورّمتا الأجفان تلمعان بوقدة السّكر. وضع عقب سيجاره الهافاني في منفضة أمامه، ووقف لاستقبالي رافعا هامته في أنفة كأنّه يريد أن يطيل قامته بضعة سنتمترات، وتقدّم نحوي مبتسما وهو يربط حزام روبه البنّيّ المنمنم. قبّلني من خدّيّ ومسك يدي فأجلسني حذوه على كنبة من الجلد الأسود الرّاقي.

كانت السّيّارة قد غادرت الطّريق السّريعة وانعطفت في طريق ثانويّة ذات حفر وحداب حين عصّب الرّجل الجالس عن يميني عينيّ، ولم يزلها إلاّ من بعد ما لفظتني السّيّارة. فتحت عينيّ فإذا بي في قاعة فسيحة لها بابان عريضان أحدهما يفتح على قاعة مشابهة وقد فرشت هي أيضا بالزّرابيّ الثّمينة، وأثّثت بالقطع الفاخرة، ورصّعت بالمرايا

والأطر المذهّبة والتّحف والثريّات، والثّاني تحدّه فرجة بلّوريّة تطلّ على حديقة لا تلوح منها غير أضواء شحيحة لفوانيس مرصوفة على الأرض عند حوافّ المماشي.

سمعت صاحب البذلة البيضاء يقول وهو يشير بيده أمامه في حركة مسرحيّة: "المعلّم!"

نظرت حيث ينظر فإذا رجل عرفته في الحال وقرأت الشّرّ في نظراته. جلفا كان وسيظلّ برغم مظاهر النّعيم التي يكدّسها بغير ذوق، وبالأحرى التي تشهد على قلّة ذوقه. بإشارة منه، انسحب صاحب البذلة البيضاء وبقينا وجها لوجه. تناول زجاجة "شيفاس" كانت على مائدة بلّوريّة أمامه وملأ لنا كأسين. رأيته يرشف من كأسه جرعة، ثمّ يفترّ فمه عن بسمة خبث تمحو غضون جبينه وتوقد سواد عينيه وهو يومئ إليّ برأسه كي أجاريه.

– كلّ شيء بالكيف. لا أحبّ أن أغضَب على أمر لا أريده.

نظر إليّ في غضب وقد وخزته كلماتي وثار الدّم في رأسه حتّى ذهب عنه أثر الخمر فقال:

– ليس من عادتي أن آتي امرأة على جفاف أبدا.

وقام قومة عنيفة، وتوارى عن نظري.

وما لبث أن أقبل صاحب البذلة البيضاء ومعه امرأة سمراء بدينة.

- ستريك غرفتك. أرجو أن يليّن اللّيل دماغك، فما فعلته مع المعلّم لا يليق.

- ٩ -

بقيت أيّاما فى سجنى الورديّ لا أغادره. فيلاّ مترامية الأطراف، مترعة ببذخ يفيض عن الحاجة، ويعكس ثراء لم يبذل صاحبه أدنى جهد لكسبه عدا استعمال النّفوذ للاستيلاء على المال العامّ والمال الخاصّ، يستقوى على النّاس كبارا وصغارا برجاله وميليشيا الحزب الحاكم وحتّى قوّات الأمن، إلى أن صار بعبعا ترتجف لذكره البلاد بطمّ طميمها. لم يسمح لى بالخروج أو استعمال الهاتف أو التّحدّث إلى طاقم الشّغّالين. كذلك قيل لي. ولكنّى قرّرت أن أمضى بالجسارة إلى أقصاها، فليس من المعقول فى شيء أن أعلن استسلامى بعد أن تجشّمت المشاقّ، وتكبّدت السّهر ليالى لا تنتهي. جئت لأمر ولا بدّ أن أبلغه، ولو كلّفنى ذلك حياتي.

كان صاحب البيت الذى لا أحبّ أن أسمّيه يستدنينى كلّ ليلة، فنسهر ونتسامر ونقرع الأقداح إلى أن يتعتعه السّكر، وهو يتطلّع إليّ بعينين تنديان برغبة طافحة، يمنّى النّفس بقضاء وطر بخلت به عليه، ويؤوب إلى غرفته مكسور الخاطر، تفور أنفاسه بالغضب ويصخب لسانه

بالزّمجرة. لم يفهم كيف يمكن أن تتمنّع عليه امرأة مثلي تهوى السّهر والرّقص والغناء، وعهده أن تستنيم النّساء إلى ذراعه لأدنى إشارة.

وليلة، نفد صبره فارتمى عليّ يدعك صدرى بقوّة، ويقبّل رقبتى بعنف، ويلهث بأنفاس مخمورة، وأنا أتلوّى بين ذراعيه القويّتين كسمكة علقها شصّ قاتل. وفيما أنا أقاوم اندفاعه بكلّ قوّتى صكّ سمعى فجأة صوت مشروخ من خلفي:

– يا خائن!

اعترته بغتةً أرخى خلالها قبضته فالتفتُّ، فإذا بى أمام امرأة ناحلة تقبل نحونا حافية بخطى متعثّرة كأنّها سكرانة. شعرها المصبوغ منفوش، ووجهها شاحب ممتقع زادته الغلالة ذات الصّفرة الخافتة شحوبا وامتقاعا. فى حركاتها اضطراب وفى نظراتها شرود. تهالكت على الكنبة فى منتصف الطّريق وقد خارت قواها والتوى عنقها كمن غلبه النّعاس.

ملّصت ذراعى وأسرعت إليها أهدّئها وأسألها فى انزعاج، وقد لمحت أثر وخز الإبر فى ذراعيها النّاحلتين:

– من فعل بك هذا؟

– إليك عنّي! قالت بلسان معوجّ وهى تسحب ذراعها وتدفعنى بغلظة.

– أنا سامية، وقد جئت من أجلك! قاطعتها في ما يشبه الاستجداء. جئت أخلّصك من هذا الذي خطفك كما خطفني.

– خطفني؟ هاها! ردّت في ضحكة حانقة وعيناها زائغتان. أنا تبعته برجليّ، لأنّي... ولكنّه... ولكنّه ككلّ الرّجال... تفوه! خائن لا يستحقّ...

– تعرفينها؟ سأل صاحب البيت وقد بدا أنّه يفيق من سكره وذهوله.

– نعم. إنّها أمّي.

- ١٠ -

كان فى البيت أسيرة، فصار يحوى أسيرتين، وربّما أكثر. فهو من الكبر ما يتّسع لحريم بحاله. حكم علينا أن نبقى فى غرفة محدّدة لا نغادرها، فيها مأكلنا ومشربنا ومنامنا إلى أن يأتى رأى مخالف.

ليلتها، وقف الرّجل وقد غلبه الغضب وامتزج فى قلبه الحقد والنّقمة علينا معا. ولكنّه تلقّى مكالمة فبدا مشغولا بأمور أخرى. كظم غيظه وظلّ الحنق متوهّجا فى عينيه، قبل أن يغادر القاعة.

فى تلك الأيّام، وجدت صعوبة فى التقرّب من أمّي، والأخذ بيدها للخروج من محنتها، وقد عاث ذلك القذر فى جسدها تخريبا بالإبر، وجعلها أمة له تطيعه فى كلّ أمر. تضاءل حجمها ووهنت قواها وارتبكت حركاتها وغام إدراكها فما عادت تتبيّن ما يحدث إلاّ فى أوقات متباعدة تصحو إثرها كما يصحو المصروع من غفوته، ثمّ تعاودها تلك الحال، فتتمدّد على ظهرها وعيناها إلى السّقف، شاخصتان، لا أثر فى جفونها لأدنى رفيف.

تساءلت، وأنا ألحظ نومها المضطرب وكوابيسها الهاذية واستفاقاتها

المذعورة، عن علاقتها بذلك الرّجل الذى لا يسمّى. هل عشقته فعلا أم أنّها واهمة، ألقت مصيرها بين يدى فاسد فاسق؟ وأبي، هل كان يفقه بالضّبط سبب اختفائها أم أنّ الخوف أرغمه على السّكوت والقبول بالأمر الواقع؟ هل كان يعرف مثلا أنّ زوجته، أمّ ولديه، هجرته لترتمى فى حضن عشيق له من النّفوذ ما أطمعها فى عيش أرغد؟

لجّ بالأفكار رأسي، وازدحم بالهواجس صدري، وتخضّلت بالدّموع عيناى وأنا أتمثّل نهاية أبي، فعزمت أن أثأر له من غريمه، غريمه الذى دمّر بيته وفرّق بينه وبين زوجته، وقضى أن يعيش ذليلا يكابد القهر كلّما أجنّه ليل. ولكنّه لم يعد. لا تلك اللّيلة، ولا اللّيالى التى تلتها، فقد جدّت أحداث ظلّت تكبر وتتّسع حتّى عمّت، فإذا هى حريق عظيم اشتمل البلاد كلّها، بمدنها وقراها وسواحلها وأريافها. ولم يجد الأوغاد الذين حلبوا ضرع الشّعب حتّى الدّم سبيلا للنّجاة غير الفرار.

حتّى البيت الذى كنّا فيه هجره ساكنوه والعاملون فيه وما عدنا نسمع أيّ حسّ. نهضت أمّى تتحامل ولا تقوى على النّهوض، فأسندتها حتّى وقفت على رجليها مترنّحة فى البداية، ثمّ ثابتة ثباتا سررت به، فنقّلت البصر كأنّها تكتشف المكان وقالت:

- سامية؟ ماذا نفعل هنا؟

أدركت ساعتها أنّ أمّى أبلّت من شدّتها.

باريس فى ٧ نوفمبر ٢٠١١

سبع صور للذّكرى

صورة أولى

عندما سمعه يقول فى تلعثم: "أنا فهمتكم! فهمت الجميع!" والاختلاج فى صوته والارتباك فى حركاته، ضرب كفًا بكفّ وهزّ رأسه فى أسى مشوب بسخرية مرّة. تساءل كيف رضى أهل البلاد أن يسوسهم رجل يعجز عن التّحدّث إليهم بلغتهم، بلغة الشّعب، بالدّارجة، بعاميّة أبناء البلد على اختلاف جهاتهم. كان واضحا أنّ الرّجل يقرأ من ورقة أمامه. ورقة أعدّها له فى ما يبدو مستشارون استُقدموا خصّيصا من البلدان البعيدة، ليلقّنوه بضع كلمات قد تطفئ نار الشّارع وتهدّئ غليانه.

يذكر أنّ زوجته قالت له ذات ليلة: "لقد مرّت على وجوده فى السّلطة أعوام دون أن يخاطبنا، نحن أبناء شعبه، ولو مرّة واحدة." سألها كالمستغرب: "ألا يكفيك ما يغرقنا به من بيانات "تاريخيّة" بمناسبة وبغير مناسبة؟" وفى البال تلك الخطب المسهبة التى تقطع من أجلها البرامج وتذاع على الهواء مباشرة، ثمّ تعاد فى السّهرة وفى اليوم

التّالي، تعميما للفائدة كما يقولون. قالت له: "تلك خطب يكتبها له غيره ليقرأها علينا. أنا أحدّثك عن كلامه هو، نريد أن نسمعه لنعرف آراءه ومواقفه وتحاليله ونفهم طريقة تفكيره."

استثاره كلامها فظلّ يتعقّب الفرصة التى يسمع فيها رئيس بلاده يتحدّث إلى النّاس أو إلى وسائل الإعلام دون اللّجوء إلى ورقة مكتوبة. وصار كلّ مساء يجلس أمام التّلفاز فى انتظار شريط الأخبار، فلا يرى إلاّ ما يرى مشاهد أفلام السّينما الصّامتة فى مطلع القرن الماضي. كان يومئ بيديه ويشوّر بغير كلام، سواء فى مكتبه، أو فى مجلس الوزراء، أو فى زيارة من زياراته "الفجئيّة" المبرمجة. إلى أن سمعه ذات مساء يردّ على مسؤول أطنب فى شكره لزيارته ضريح شاعر تونس الخالد حيث قال: "توّة هذا كلام! ثَمّة واحد يجى لتوزر وما يزورش قبر الشّابّي!" يومئذ صُعق بما سمع. كان حديث سيادته بلهجة المنحرفين وفئران الأحباس. حتّى جاءت الشّواهد تثبت أنّه فعلا واحد منهم.

•••

صورة ثانية

استوقفتنى على صفحات الفيسبوك صورة رجل بثياب قديمة ملوّثة بأوضار الحوارى الخلفيّة، يستر بعرّاقيّة داكنة رأسه الصّغير المكوّر، رأسا يتبدّى فيه وجه مثلّث كالح ذو لحية خفيفة شعّ فيها بياض الشّيب. كان يصرّ فى سترة واقية من المطر جسدا ضامرا، أشبه بجسد عدّاء لا أثر لفضلة شحم تدوّر بطنه أو تطرّى خصره، يثنى ركبتيه بشكل متباعد ليتّخذ له وضع رماية، موجّها "سلاحه" إلى صدور أعداء يلوحون عن بعد.

بدا الشّارع مضطربا يضجّ بالصّخب والعنف، والفضاء غائما تغطّيه سحابات كثيفة من الدّخان، دخان الغازات المسيلة للدّموع، التى كان أعوان البوليس يطلقونها على المتظاهرين، والأرصفة وسخة تلطّخ أديمها الفضلات وأوراق الجرائد وأكياس البلاستيك وكبسولات القنابل واللاّفتات الممزّقة.

لم يأبه أحد له ولا "للسّلاح" الذى كان يحمله، برغم قربه من وزارة الدّاخليّة، وزارة الإرهاب والقمع والتّعذيب وحتّى القتل كما يصفها المتظاهرون، بعد أن انهار جدار الخوف وانحلّت عقدة ألسنتهم التى كانت مكبّلة بقضبان من حديد منذ ما يناهز ربع قرن، وفى رواية أخرى

منذ ما يزيد على نصف قرن، أى منذ رحيل الاستعمار.

لم يلتفت أحد لـ"سلاح" ذلك الفتى، ولا أعاره اهتمامه. والحال أنّه طالما ركّع أمما، وقهر شعوبا، وأذلّ دولا لم يحتط حكّامها الحيطة اللاّزمة لوزنه وقوّة من يملكه. ما زلت أذكر حتّى اليوم حديث صديقى المناضل النّقابىّ: "هو صنو للحياة والوجود والبقاء على وجه الأرض. إذا ملكته صنت نفسك وأهلك وأقرباءك من ذلّ السّؤال، وإذا عدمته صرت أشبه بابن آوى أمام أسد ينهش فى البرّيّة فريسة، لا تنال منها فى أحسن الأحوال إلاّ الفضلات."

تساءلت وأنا ألمح الفتى يشهر "سلاحه" فى ذلك الوقت الذى اشتعلت فيه نيران الغضب، وفى ذلك المكان الذى تضيع فيه بدائه الرّجال، هل كان يرغب فى تذكير الحاكم وآلة قمعه بما دفع النّاس إلى الخروج عن الطّاعة والتمرّد والانتفاض وإشعال نار الثّورة؟ أم هو يريد أن يقول له: سنقاتلك بـ"السّلاح" الذى أردت إذلالنا بواسطته؟

كان الفتى، فى ذلك المساء المضطرب، يشهر فى وجوه أعوان الأمن رغيفا من الخبز، الرّغيف الذى كان الطّاغية يمسكهم به فيوجّههم الوجهة التى يريد.

•••

صورة ثالثة

اقتحموا البيت على وجه الفجر، تحت سماء تتنقّل فيها الغيوم على هينتها، يرفعون العصيّ والمدى والحديد، ويهتفون فى لهاث وزعيق حادّ يستقوون على خوفهم بالصّراخ: الخوف من رجال مسلّحين جعلوا لحراسة هذا البيت المترامية أطرافه فى ضاحية من ضواحى العاصمة. بيت كالضّيعة، كالقصر، كالثّكنة أو يزيد، يحوى كلّ ما يمكن أن يخطر ببال لصّ مصاب بجنون العظمة. كان أشبه بمعقل من معاقل بارونات المخدّرات فى مدلين بكولومبيا أو خواريس بالمكسيك، من حيث سعته ومساحة غرفه وكثرة صالوناته وتعدّد مسابحه وعلوّ أسواره وعدد حرّاسه وتشعّب حدائقه الشّبيهة بدغل من أدغال إفريقيا. والخوف ممّا فى ذلك الدّغل من حيوانات متوحّشة، جُلبت من شتّى أصقاع العالم، خصّص ربّ الدّار لاستقدامها مالا وفيرا وجهدا كبيرا ودبلوماسيّين لا يحصون عددا انحصرت مهمّاتهم فى البحث عن الحيوان المنشود ورشوة أهل البلاد لتيسير وَسقه.

لم يصادفهم فى سعيهم أحد. كان البيت بما رحب خاليا من البشر. الجميع خيّروا الفرار على الدّفاع عن حصن ساقط لا محالة طال الوقت أم قصر. اندفعوا يخلعون الأبواب ويهشّمون النّوافذ ويحطّمون

التّحف والمرايا والأطر والأثاث ويضرمون النّار في الغرف كلّها، حتّى غدا البيت بما فيه حريقا يتعالى لهيبه ويطاول دخانه عنان السّماء.

كانت النّيران قد هيّجت حيوانات الدّغل، وسرعان ما دلّ صراخها وزئيرها المقتحمين إلى مكانها. بدؤوا بإضرام النّار في الأعشاب المصفرّة وأوراق الأشجار اليابسة، فاندلع حريق آخر اتّصلت ألسنته بالحريق الأوّل، وإذا الحيوانات في فخّ ليس لها منه مهرب. وفيما كانت بعضها تصارع اللّهب وتقاوم الاختناق، مضى الشّبّان إلى فضاء معزول جعل لتربية أحد النّمور البنغاليّة.

حملوا المشاعل والتفّوا بقفص النّمر يقذفونه بالحجارة من كلّ جانب وقد هيّجهم الصّراخ والنّيران. وفجأة تقدّم شابّ غليظ الملامح بيده بندقيّة صيد وجدها على عين المكان. وسّع الصّفوف أمامه، وأطلق عيارا واحدا أصاب النّمر في مقتل. ثمّ أطلق طلقة ثانية كسّر بها القفل، فدخل الشّبّان تباعا وأوثقوا النّمر وجرّوه قرب أحد المسابح. هناك، على الأرضيّة اللّزجة المرصّفة بقطع الفسيفساء اللاّزورديّة، استلّ شابّ متين البيان مفتول العضلات مديتين، شحذهما بعضهما ببعض، ثمّ ألقى الأولى جانبا ولوّح بالثّانية وصاح:

"الله أكبر!"

وهوى على النّمر يذبحه كأنّه خروف أضحية، ثمّ جزّ رأسه وسلخه.

رفع جلد النّمر الذّبيح بيده اليسرى، أمام رفاقه المهتاجين، وأشهر المدية الملطّخة بالدّم بيده اليمنى وصاح بأعلى صوته، ورذاذ بصاقه يتناثر من حوله:

"قسما عظما! لنجعلنّ مصير صهر الهارب حينما نلقى عليه القبض كمصير نمره هذا!"

•••

صورة رابعة

يحدث أن تصادف فى الطّريق السّريعة تونس- الحمّامات سيّارة تسير سير سلحفاة فى البرّيّة، أو شاحنة خفيفة تحمل من قوالب التّبن ما يفوق حجمها بشكل قد يفقدها فى كلّ منعرج توازنها، أو شاحنة على حافة الموت يسعل محرّكها سعال مصاب بالسّلّ، وينفث مع كلّ سعلة دخانا يخنق من وراءه ويعشى أبصارهم فيخطئون معالم الطّريق، أو جرّارا يكدّس فى مقطورته الرّكّاب كما تكدّس حبّات الدّلاّع؛ أو شبّانا يجرعون البيرّة ويلقون بالعلب الفارغة يمنة ويسرة... قد تصادف أيضا رجلا يعبر الطّريق وهو يدفع أمامه عجلة، أو امرأةً وهى تجرّ نعجة أو بقرة... كلّ ذلك جائز، لكن أن تصادف جرّافا يحمل بين أسنانه الفولاذيّة سيّارة جديدة، فهذا أمر نادر. ويصبح الأمر أشدّ ندرة إذا كانت السيّارة من النّوع الفاره الذى يدخل فى هواية جمع التّشكيلات. أمّا إذا اتّضح أنّها كانت ملكا لأوّل شخصيّة فى البلاد وأكبرها، فإنّ ذلك يغدو من طرائف الأخبار التى تتلقّفها وسائل الإعلام العالميّة.

سائق الجرّاف هذا أدرك المتظاهرين وهم يطوفون داخل ذلك القصر المنيف، الذى أقيم فى أرض خصبة على أنقاض مزارع القوارص

الشّهيرة، حيث الآن فنادق خمس نجوم ومنتجعات للأعيان، قصر يطلّ على ساحل رمليّ فريد على ضفاف المتوسّط لم يكن يسمح بالمرور أمامه إلاّ من مسافة بعيدة. كانوا يحطّمون فيه كلّ قائم، ويضرمون في أرجائه النّيران وهم يركضون في هتاف وصراخ وعيونهم تشتعل بالنّقمة. بدا جليّا أنّهم يريدون تدمير كلّ شيء، تنفيسا عن غلّ استحكم على مرّ السّنين تجاه عصابة فاسدة، استأثرت باللّبّ ولم تترك لهم سوى القشور. ويقينا أنّهم لو وجدوا أصحابه لمزّقوهم شرّ ممزّق.

اقتحم الرّجل المكان بجرّافه، ومضى يبحث عن شيء يحمله للذّكرى. رأى بابا عريضا لم تدركه النّيران، فوجّه آلته نحوه يخلعه. قلّع الباب فإذا خلفه مستودعٌ لسيّارات ما رأت عيناه مثلها. كانت مرصوفة جنبا إلى جنب مثل "ماجوريت" الأطفال، تلك السّيّارات الصّغيرة التي عاد له أخوه المهاجر مرّة بتشكيلة منها، هديّة لطفله البكر. كاريرا، لمبورغيني، ماصراتي، بورش، فيراري، هوندا، ميتسوبيشي، مرسيدس، بي أم، جاغوار، بنتلي، لانتشا، ألفا روميو... نقشت بداخلها الأحرف الأولى لصاحبها: ز. ع. ب. ع.

اتجه إلى أوّل سيّارة، لقربها من الباب. "كاريرا" برتقاليّة اللّون، يلمع صفيحها كأنّها خارجة توّا من المصنع. أعمل فيها كمّاشة جرّافه الفولاذيّة، ورفعها في حذر، وغادر القصر ليعود بها إلى بيته.

في الطّريق كان يقول لمن يسأله: "استرجاع أموال منهوبة."

•••

صورة خامسة

الوقت ليل، والشّارع معتّم يلوح فى نهايته ضوء شاحب لمصباح بلديّ، خال إلاّ من بعض سيّارات تمرق فى أوقات متباعدة، وأصداء بعيدة لرشقات ناريّة، تخلّف ضوءا كالبرق يشعّ فى سماء غاب عنها القمر. تلاحق الكاميرا ذلك الومض الخاطف، ثمّ تنحدر لتمسح المكان ببطء. تتنقّل من اليمين إلى اليسار وصوت خارج الإطار يوجّه المصوّر بكلام كالهمهمة. ترتجف الكاميرا كأنّ حاملها ارتبك أو فوجئ، وتغيب الصّورة لحظة قبل أن تستعيد توازنها، فتركّز على "استافيت" غامقة الزّرقة مقبلة من الجهة اليمنى للكاميرا، تهدّئ سرعتها، تنعطف إلى اليسار قليلا، وتتوقّف أمام متجر مغلق. "زوم" إلى الأمام بطيء يجعل السّيّارة فى مرمى الكاميرا، وبياض اللاّفتة المصبوغة على صفيحها باديا للعيان.

- انظر! قال الصّوت "أوف" فى استغراب.

- اخفض صوتك! علّق المصوّر فى همس.

يقوم المصوّر بحركة "زوم" إلى الوراء فى تؤدة تجعلهم جميعا داخل الإطار. تفتح الأبواب من الجانبين، فينزل رجال بأزياء داكنة. خمسة.

تقدّم اثنان منهم من باب المتجر يخلعانه بـ"غانجو"، والآخران خلفهما في حالة تأهّب، فيما بقي الأخير واقفا جنب السّيارة، ينقّل البصر حوله في قلق.

- مش معقول! هتف الأوّل بصوت مخنوق.

- ششت! وطّي صوتك!

انصاع الباب اللّولبيّ فرفعه الرّجلان، ودخلا يتبعهما زميلاهما، وغابوا جميعا داخله، وبقي الخامس في وضعه وفي حركاته القلقة.

- عمّ يبحثون؟ علّق الأوّل.

- اصبر. دقائق وسنعرف.

لم تمض دقيقة واحدة حتّى ظهر الأوّل فالثّاني فالثّالث يحملون أمتعة وبضائع، شحنوها في السّيّارة وعادوا إلى المتجر يتخيّرون ما فيه.

- حاميها حراميها! قال الأوّل في سخرية.

- هههه! هذه المرّة، البوليس والشّعب يد واحدة.

دقائق وجيزة ثمّ ظهر الأعوان الأربعة من جديد محمّلين بمسروقاتهم. شحنوها في السّيّارة وقفزوا في جوفها، وقد سبقهم إليها زميلهم، فانطلقت بهم في أزيز نفّاذ وغاصوا في العتمة.

التّعليق على الفيديو: أعوان البوليس يمدّون أيديهم للقصعة.

•••



صورة سادسة

لاذت الطّالبة ببيت صديقتها الموظّفة الشّابّة فى العاصمة. كانت المسالك غير مأمونة فى نهاية ذلك اليوم الذى تسارعت فيه الأخبار وتضاربت. ثمّ ازدادت تعقيدا بإعلان حظر الجولان. منذ الصّباح، جاءت هى وصديقتها، كغيرهما من شباب البلاد وشبّانها، تصرخان فى وجه الاستبداد أمام وزارة الدّاخلية، رمز الرّعب والقهر والجور:

ديڤاج! ديڤاج! ديڤاج يا خمّاج!

وعادتا والفرح يملأ صدريهما ويضيء وجهيهما. هذه المرّة، جرت الأحداث كما تمنّتا وتمنّى كافّة المتظاهرين. وفيما هما تتابعان فى القنوات الفضائيّة تعاليق الصّحافة وتسترجعان أطوار المظاهرة، تناهى إلى سمعيهما صوت كالاستغاثة أو النّحيب. أطلّتا من الشّرفة فإذا رجل فى زيّ رياضيّ يرفع عقيرته بالنّداء مثل البرّاح:

يا توانسة يا اللّى تغبنتو!

يا توانسة يا اللّى تقهرتو!

كان يراوح مكانه فى الشّارع الرّئيسيّ وقد خلا من أيّ عابر، بشرا كان أم عربة، ويصرخ بندائه الغريب:

يا توانسة يا اللّى تعذّبتو!

يا توانسة يا اللّى تظلمتو!

لم تستطع البنتان أن تمنعا ضحكة غلبتهما. وفجأة خطر ببالهما أن تصوّراه، أن تخلّدا هذه اللّحظة كواحدة من لحظات ثورة الكرامة.

أسرعت الموظّفة إلى الكاميرا، فيما أخرجت صديقتها هاتفها الجوّال وراحتا تسجّلان ذلك المشهد الفريد فى شارع يغوص فى العتمة، برغم الأضواء المتلألئة عن بعد.

وطال بالرّجل النّداء:

السّارق هرب!

السّفّاح هرب!

المجرم هرب!

وإذا الصّوت مشروخ يشرق بالوجع، وإذا النّبرة حزينة تنذر بالبكاء، فى رنينها خلاصة مكابدات قاسية. صوت يحمل تباشير الفرح المؤجّل من سنين، ولم يمح بعد مآسى الأعوام الخوالي.

اعترى البنتين صمت ورهبة، ثمّ سالت على خدّيهما دمعة، ثمّ انهلّت الدّموع من عيونهما غزيرة، وهما تسمعانه يعلن فى صراخ مولود يبشّر بفجر جديد:

يا توانسة يا اللّى تظلمتو!

تنفّسوا الحرّيّة!

•••

صورة سابعة

شارع بورقيبة، تحت شمس شتويّة واهنة، سوق ودلاّل. خلق كالسّواد الضّارب، غقيق وغليان، لغط وضجيج، هدير وصخب، زعيق يصّاعد فى الأرجاء بلا رقيب، أرصفة تغصّ بالباعة والمارّة والمتظاهرين. إخوان يصلّون على قارعة الطّريق، سلفيّون يلوّحون برايات وهابيّة ويترنّمون بأناشيد دينيّة، جنود يعتلون مدرّعة تحيط بها الأسلاك الشّائكة قرب تمثال العلاّمة ابن خلدون، ما بين الكنيسة وسفارة فرنسا، وآخرون على دبّابة بآخر الشّارع، غير بعيد عن وزارة الدّاخليّة...

وسط الزّحام، والمذيعة تسألهم: ما معنى الحرّيّة بالنّسبة إليكم؟

قالت الطّالبة الجامعيّة: أن أقرأ وأشاهد وأسمع الأعمال الفنّيّة التى تروقني.

قال الفنّان المبدع: أن أكسر القيود وأمحو الحدود وأتوق إلى أفق لا مكان فيه لرقابة أيّا ما يكن مأتاها.

قالت السّينمائية الصّلعاء: أن أكون حرّة فى كلّ شيء، لا شأن فى ما أختاره لأحد، لا ربّى لا عباده!

قال فيلسوف التّعاسة: عن أيّ حرّيّة تتحدّثين سيّدتى الكريمة، ورقابنا

مرهونة للجشع اللّيبرالى من جهة، والتّيار الوهابيّ من جهة ثانية، والأمّيّة الضّاربة جذورها فى سائر شرائح المجتمع، حتّى المتعلّمة منها من جهة ثالثة؟

قال المتديّن الورع: أن أصوّت لحركة النّهضة.

قال السّلفيّ الملتحي: حرّيتى يحدّدها الشّرع والسّلف الصّالح.

قال المتخرّج المعطّل: لا حرّيّة لديّ وأنا بلا عمل.

قال المدمن: أن أشرب متى يحلو لى بغير تحديد فى المواعيد ولا فى الكمّيّة.

قالت نجمة الرّقص الشّرقيّ: أن أعشق من أشاء، وأفعل بجسدى ما أريد.

قالت موظّفة البنك: أن أكون ابنة عصري، فى لباسى وتفكيرى وقراري، لا أخضع لرجل ولو كان زوجي.

قال البائع الجوّال: الحرّيّة هى أن نغادر الأسواق الشّعبيّة ونأتى إلى سرّة المدينة، إلى شارع بورقيبة الذى يُمنع علينا عرض بضاعتنا فيه لكى لا نشوّه وجه المدينة، كما كان يقال لنا. نريد أن نكسب قوتنا حيثما وجدنا لكسب القوت سبيلا، ولن يردّنا بعد الثّورة أحد.

قال الملحد الفرنكفونيّ: أن أضع فكرة الرّبّ والآخرة موضع شكّ ومساءلة، ولتذهبوا وحدكم إلى الجنّة. أنا جنّتى هنا، على الأرض.

قال العامل البسيط: لا حرّية قبل أن ترفّع الحكومة في الشّهريّة، وتحدّ من غلاء المعيشة.

قال الشّابّ العاطل: أن أغادر البلاد بلا رجعة.

قالت العاملة الرّيفيّة وقد جاءت تبحث عن قاض شريف يقتصّ لابنها الشّهيد: ما معنى هذا الكلام؟

•••

باريس في ١١ نوفمبر ٢٠١١

الكاتب

أبو بكر العيادى كاتب تونسى مهاجر من مواليد ١٩٤٩ بجندوبة، يقيم فى باريس منذ ١٩٨٨. عمل بالتدريس والصحافة الثقافية والإنتاج الإذاعى والترجمة. كتب القصة والرواية والمقال والدراسة والمسلسل الإذاعى وأدب الطفل واليافعين، وترجم أعمالا من عيون الآداب الأجنبية، كما وضع بالفرنسية قصصا مستوحاة من التراث العربى القديم والتراث الشعبى التونسي.

من مؤلفاته:

- لابس الليل (رواية) سحر، تونس ٢٠٠٠
- الضّفة الأخرى (قصص) ط١ كمبيانت، القاهرة ٢٠٠١- ط٢ وليدوف، تونس ٢٠١١
- آخر الرعية (رواية) ط ١ لارماتان، باريس ٢٠٠٢- ط٢ ورقة، تونس ٢٠١٢
- الرجل العارى (رواية) دار الجنوب، تونس ٢٠٠٩

صدر له عن دار ورقة للنشر:

- حقائب التّرحال (قصص) تونس ٢٠٠٩
- زمن الدنّوس (رواية) تونس ٢٠١١
- ورقات من دفتر الخوف (رواية) تونس ٢٠١٢
- الوجه والقفا (قصص) تونس ٢٠١٢

المحتوى